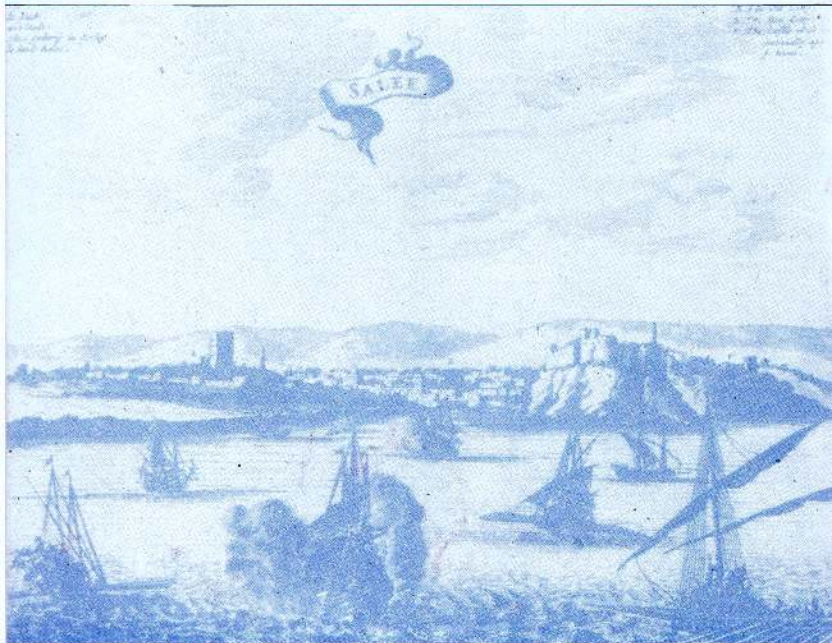


موجز تاریخ سلا

1800 - 1000

ترجمہ عن الہ انجلیز نیسٹ

محمد حبیبہ اناس لعلو



كينيث براون

Kenneth BROWN

مُوجَز تَارِيح سَلا

1800 - 1000

ترجمه عن الإنجليزية
محمد حبيدة أناس لعلو

منشورات أمكل

الكتاب : موجز تاريخ سلا
المؤلف : كنيث براون
الترجمان : محمد جيدة وأناس لعلو
الناشر : مجلة أمل للتاريخ والثقافة والمجتمع
الطبعة : الأولى - الدار البيضاء
السنة : 2001
الإيداع : القانوني رقم 2000/1717

فهرس

| | |
|----|--|
| 5 | تقديم |
| 7 | مقدمة : التاريخ المحلي والتاريخ القومي |
| 19 | الفصل الأول : نشأة مدينة إسلامية |
| 23 | قيام سلا كمدينة |
| 29 | الفصل الثاني : نماء سلا (المرابطون والموحدون) |
| 30 | اتساع المدينة |
| 32 | قبلة الصلحاء |
| 32 | ابن العباس |
| 33 | أبو موسى |
| 35 | الحياة الاقتصادية |
| 39 | الفصل الثالث : العصر الذهبي |
| 39 | المرينيون |
| 40 | تطور المدينة : العمارة والتجارة |
| 42 | ازدهار الثقافة |
| 45 | ابن عاشر الطبيب |
| 47 | الأولياء والتصوف |
| 53 | الفصل الرابع : أصالة سلا |
| 54 | رخاء المرسي |
| 55 | الصوفية : سيدي عبد الله بن حسون |

| | | |
|-----|--|---------------|
| 59 | العياشي والدفاع عن التراب المغربي | |
| 60 | المورسكيون | |
| 62 | الصراعات الداخلية للجمهوريات الثلاث | |
| 67 | الفصل الخامس : قرصنة سلا | |
| 70 | التجارة والرخاء في أفضل مرسى بالمغرب | |
| 72 | الطائفة اليهودية بسلا | |
| 75 | أحمد حجي المجاهد والولي | |
| 83 | الفصل السادس : أهل سلا في القرن الثامن عشر | |
| 85 | التضامن الحضري | |
| 86 | السلطة المحلية والسلطة المركزية | |
| 88 | أفول التجارة | |
| 92 | الأزمات : التهديد الأوربي والصراع الداخلي | |
| 96 | ثبات صورة | |
| 101 | المظهر التاريخي لسلا | خاتمة : |
| 107 | ملاحظات حول المؤرخين السلاويين | ملاحق : |
| 115 | شالة - سلا - الرباط : مرحلة ما قبل الإسلام | |
| 120 | مخطوطات | ببيلوغرافيا : |
| 121 | مطبوعات | |

تقديم

حظيت المدن العتيقة في المغرب باهتمام مميز من قبل المؤرخين، الأجانب والمغاربة على السواء. فأبحاث جاك كايي وعبد الإله الفاسي حول الرباط وروجي لوتورنو ومحمد مزين حول فاس وغاسطون دوفيردان حول مراكش وحليمة فرحات حول سبتة، ودراسات جامعية أخرى غير منشورة حول مكناس وتارودانت وأغمات وغيرها حققت تراكما هاما حول المدينة: بنياتها، وظائفها، أهاليها.

وتتخرط حاضرة سلا، هي أيضا ضمن هذا التراكم المزدوج المرجعية. فقد ساهمت تنقيبات الباحثين في كشف المكونات البشرية والأثرية والثقافية التي يزخر بها تاريخ المدينة، في طليعتها عمل الباحث الانجلوسكسوني كنيث براون حول الثابت والمتحول لدى السلاويين في المرحلة المعاصرة 1830-1930، وبحث جودية حصار بن سليمان، المنجز بالفرنسية بخصوص تاريخ المدينة وأرشيفاتها ومعالمها الأثرية ودراسة العربي واحي، التي لا تزال مرقونة، حول الحاضرة في ظل الحماية.

والعمل الذي نقترح ترجمته ضمن منشورات أمل تحت عنوان: " موجز تاريخ سلا 1000-1800 " لكينيث براون الصادر بالإنجليزية في مجلة هيسبريس لسنة 1971* يعبر عن رغبتنا الأكيدة لإيصال بعض محتويات هذا التراكم إلى عموم القراء بالعربية على وجه التحديد، من دائرة المتخصصين في قطاع

التاريخ وغير المتخصصين، لما يحمله هذا المسح التاريخي الغني، الممتد على العصرين الوسيط والحديث من أهمية قصوى على مستويات متعددة : الوقائع التاريخية التي عاشتها سلا العلاقات مع الجارة الأبدية الرباط، الامتداد الزمني لظواهر ثقافية ودينية لا تزال تتبض بالحياة إلى اليوم. والواقع أن الدراسة مقارنة لأهل سلا كصورة مصغرة للمجتمع المغربي مقارنة نلمس فيها موضوعية في التعامل مع الأحداث، حسا نقديا في معالجة النصوص ونفحة أنثربولوجية في طرح قضايا أهل سلا وعقلياتهم. فعلى الرغم من مرور ثلاثة عقود من صدور هذا البحث فإنه يظل، برأينا مرجعية في تاريخ المدينة المغربية مع ما قد نثيره بعض عناصر الموضوع من نقاش لدى المؤرخين. فهو ينخرط ضمن التراكم الأولي لفترة ما بعد الحماية، حيث عملت الدراسات التاريخية على إخراج البحث من الأفكار الكولونيالية الجاهزة وتجديد المناهج والمقاربات .

ثم ماذا عن عملية الترجمة؟ وفاء للنص أم كتابة ثانية؟ أمر صعب حقا. فالنص الواحد يطرح من المضامين والتعبير والمقولات ما يجعل المترجم في مأزق عويصة لا يخرج منها إلا بتعدد أساليب نقل المضامين وسياقات الجمل. لقد حرصنا على احترام هيئة النص وروحه، عباراته ومفاهيمه، ورجعنا في كل مراحل الترجمة إلى النصوص العربية الأصلية، المخطوطة منها والمنشورة، التي اعتمدها المؤلف، وعيا منا بضرورة تقديم هذا التعريب في حلة سلسلة يتواصل معها القارئ.

مقدمة

التاريخ المحلي والتاريخ القومي

يهدف هذا الموجز التاريخي، مبدئياً، إلى فهم البنية الاجتماعية لمدينة سلا قبل قيام الحماية الفرنسية سنة 1912 وبعدها (1). ويكتسي تاريخ المدينة، في مرحلة ما قبل توسع الأساليب الحضارية الأوربية في شمال إفريقيا إبان القرن التاسع عشر أهمية قصوى في حد ذاته. غير أن ما سنعرضه من تفاصيل بكل موضوعية، لا يمثل بأي حال من الأحوال دراسة مستفيضة لتاريخ سلا، بل قراءة تحليلية لماضي هذه الحاضرة المغربية المتميزة.

لقد نما فهمي لهذه المدينة من خلال الاطلاع على معظم المصادر المتوفرة. فعلاوة على غرلة الوثائق وانتقائها وتنظيمها بقصد السرد، ركزت على اعتبارين أساسيين : أولاً، ماهي التفاعلات الاجتماعية والاقتصادية والثقافية التي أثرت في النسيج الحضري لسلا، أي خاصية المدينة وأهلها ؟ ثانياً، كيف تصور المؤرخون السلاويون المدينة وأهلها ؟ لم أعمل على مقابلة هاتين الفكرتين مع بعضهما البعض، بل حاولت إجمعهما في تفسيراتي التاريخية، راجياً أن يساعد هذا النهج القارئ للتعرف على تاريخ المدينة وتفاعل السلاويين مع ماضيهم وتعاملهم معه.

وتساعدنا هذه النظرة التاريخية حول سلا على فهم تاريخ المغرب ككل. يبرز البحث المجهري خصوصيات هذه الحاضرة ويظهر ما تشترك فيه من مميزات مع باقي المدن المغربية، مما يجعل منها جزءاً لا يتجزأ من الإرث الحضاري القومي. ففي هذا السياق، يمكن اعتبار حركية ساكنة سلا عبر التاريخ صورة مصغرة للمجتمع المغربي. معنى ذلك أن أهل سلا قد حافظوا على كيانهم على مر القرون. وبرأيي، تدل هذه الكلمة، تقريبا على ذلك التجمع السكاني الذي يعيش على نحو جماعي في إطار

جغرافي محدد ويتقاسم أفراده أساليب مشتركة في التفكير والمعاش. فقد كان يعيش أهل المدينة في التحام قوي وكان قرابة واحدة تجمعهم في نسق مجتمعي متماسك بالنظر إلى الآخر "البراني". وإذا كان من الممكن استجلاء هذه الظاهرة من منظور سوسيوولوجي، خصوصا فيما يتعلق بالقرن 19، فإن رصدها تاريخيا، بطريقة سوسيوولوجية مفصلة، يظل صعبا بسبب نقص المادة المصدرية. لذلك، تبقى محاولتي لفهم البنية الاجتماعية للمدينة، في تغيراتها التاريخية، بعيدة عما نتيجته إمكاناتي المعرفية. ومع ذلك، يمكن القول أن المدينة قد منحت لأهلها واجهة خاصة في تصورهم للعالم. فتجربة المدينة ونبوغها جعلها تتميز عن الحواضر المغربية الأخرى في مستويات معينة، إن لم نقل في طبيعة الأمور نفسها.

أدمج الموقع الجغرافي سلا في جل الحركات السياسية لتاريخ المغرب. فقد ارتبط ميناؤها بالعواصم الداخلية مثل فاس ومراكش، وعاينت بالتالي سيولا من البشر والبضائع والأفكار وهي الحركية التي صقلت تاريخ المغرب عبر القرون. هنالك شبه بين سلا وفاس في بعض الأوجه، ومراكش في أوجه أخرى. فهي تضاهي فاس في رقة المعمار، وإن على نحو أقل جمالية، وبنزوع نحو الانغلاق والاحتفاء الذاتي، وتتقاسم مع مراكش طابع البداوة، ولو بصورة أقل حدة. إن ما يميز سلا هو موقعها على ساحل المحيط وجوارها لمنطقة الغرب الغنية بالقمح. لكن، رغم هذا الموقع الملائم، لم تكن سلا قط مركزا اقتصاديا كبيرا في المغرب. فقد ظلت مدينة هامشية، على غرار المدن الحدودية، وانحصر دورها في الربط بين عواصم الشمال والجنوب.

يمثل التحقيب إشكالية كبيرة ليس فقط على مستوى التاريخ القومي، بل المحلي أيضا. يخضع كلاهما للتأويل والنقد. وعليه تقدم فصول هذا البحث نموذجا مونوغرافيا حول سلا وإشارة حول التاريخ العام للمغرب.

توازي الفصول الثلاثة الأولى الخاصة بنماء مدينة سلا التطورات الكبرى التي عرفها المغرب بدءا من الأدارسة ومرورا باتساع الإمبراطوريتين، المرابطية والموحدية، وانتهاء عند الازدهار الثقافي لمملكة بني مرين. لقد حاولت التركيز، في هذه الفصول، على الخصال الإسلامية للمدينة باعتبارها بؤرة للجهاد، مقصدا للصالحاء والعلماء، عاصمة ثقافية واقتصادية باعتبارها بوتقة.

وتعكس الفصول الثلاثة الأخيرة الانقلاب الحاصل في تاريخ المغرب من واقع الوحدة والتوسع إلى واقع الانقسام والانكماش. فقد تعاملت مع مدينة سلا كمعقل للصوفية، كدويلة كمجتمع على طريق الانحطاط والدفاعية. مدينة تابعة للسلطة المركزية، وفي نفس الوقت محافظة على بعض الاستقلالية. في هذا المقام، أبرزت الخصائص الأساسية لسلا من زاوية محلية أكثر منها قومية، مع التنبه بالخصوص إلى الأولياء والعظماء والعلاقات مع الجيران والتكتلات الداخلية. فمن القرن 15 إلى 18 أثرت القرصنة والتجارة، وأيضا التضامن المحلي والنزاع، في تطور ثروة المدينة وبنيتها.

وبرأيي، لا يمكن النظر إلى تاريخ سلا ولا إلى تاريخ المغرب ككل من المنظور الدوري، على النحو الخلدوني. وعليه، تتبني قراعتي لتاريخ المدينة على أساس التمييز بين فترتين رئيسيتين، يفصل بينهما القرن الرابع عشر المريني

كـ "عصر عظيم" : فترة التوسع والوحدة وفترة الانكماش والانقسام. لكن، لا توضح هذه الحركة ملامح التحول في المدينة، بالشكل الكافي. لقد سعينا إلى تحليل تاريخي بعيد عن النسق التبسيطي لقاعدة القيام والسقوط الناتجة عن أشكال الخلق والهدم. عرفت سلا تغييرات عميقة في كل مرحلة من مراحل التاريخ. وأحيانا، شهدت ازدهارا اقتصاديا وثقافيا في وقت كانت تعاني فيه البلاد مشاكل عصبية. لقد ظلت سلا، بالفعل، إلى حد كبير، في مأمن من تفاعلات الداخل، لكنها كانت في المقابل أكثر عرضة للتأثير الخارجي، خاصة الأوربي. في هذا الصدد أبانت الأبحاث الأخيرة بصورة مقنعة عن الدور الكبير الذي مارسه التأثيرات الاقتصادية الخارجية على المغرب، والتي لم نعرها الدراسات المبكرة الاهتمام الكافي(2).

لسوء الحظ، وكما هو الشأن بالنسبة لأبحاث تاريخية أخرى حول المغرب، تبقى هذه الدراسة عاجزة عن كشف الواقع الاقتصادي. لقد حاولت تقديم كل ما اطلعت عليه بخصوص أسلوب المعاش. لكن، تمنع هزلة المراجع من التعمق في الموضوع، باستثناء ما تعلق بالقرن التاسع عشر حيث يتوفر الباحث على العمل الجيد لجون لوي مياج. أما بخصوص الفترات السابقة، فلم يكن بالإمكان سوى تقديم إشارات عامة حول تقلبات النشاطات الاقتصادية : التجارة البحرية مع أوروبا والبرية مع إفريقيا، الفلاحة، الصنائع. غير أن المصادر تقيّد حول جانب بالغ الأهمية في الاقتصاد: العلاقة الوطيدة بين سلا وأحوازها الغنية. ومع ذلك، تظل فروق هذا التعايش وتبايناته غامضة عبر الزمن. وهكذا، تبقى جل الأسئلة الخاصة بالنشاط الاقتصادي معلقة.

كان المجال المحاذي لمصب أبي رقرق موقعا لحضارة مدنية منذ الفيتين ونصف من الزمن على الأقل. فقد شهد، على الأرجح، مستوطنات بشرية قبل العصرين الباليوثيكي والنيوليثيكي (156). ففي هضبة سلا تم الكشف على آثار "حضارة الحصبة" من العصر الحجري القديم (157). ويعد السراج الزيتي الذي عثر عليه الباحث بوب في شالة أقدم قطعة حضارية بالمنطقة، تعود إلى القرن الخامس قبل الميلاد. فقد كانت شالة مركزا تجاريا فينيقيا منذ القرن السابع ق.م بالموازاة مع مواقع لكسوس وموغادور. فأنقاضها التي لا تزال في طور الحفر والتقيب تظهر مدى أهمية المستوطنات النيو- فينيقية، على الأقل منذ ما قبل القرن الثالث ق.م (158).

فوق هذا المكان، يوجد خراب سلا كولونيا الذي يعتبر موقعا حدوديا هاما في إقليم موريطانيا الطنجية. إنه "الليمس" الروماني الذي تم التعرف عليه جنوب الرباط، على بعد خمسة أميال تقريبا. ويعد موقع سلا كولونيا غنيا بالمآثر والنقوش التي هي اليوم قيد التقيب، في حين لم يخلف لنا الجغرافة الرومان إلا نصوصا هزيلة. فقد اكتفى بلين الشيخ، في القرن الأول بايراد أخبار مفادها أن مدينة سلا الواقعة قرب النهر الحامل لذات الاسم، تحاذي خلاءا ترعى فيه قطعان الفيلة ويسكنه البربر (159).

لقد اقتبست سلا المسلمة التي تأسست بعد بضعة قرون على الضفة اليمنى من النهر، اسم هاتين المدينتين القديمتين. ثمة مراوغة لسانية في هذه المشكلة : كيف تحول الاسم القرطاجي والروماني إلى اسم عربي ينعت موقعا يطل على المحيط. فبالنظر إلى شكل التسمية يظهر تقارب واضح بين كلمتي شالة وسلا. وتشير قطعة نقدية قرطاجية عليها نقش عبري - فينيقي

وإذا كان الحديث عن العوامل المتحكمة في النمو الاقتصادي صعبا فإنه يسهل تناول المؤثرات. فقد تحولت سلا بفعل الهجرات المتتالية من مدن شمال إفريقيا والأندلس ومن بوادي العرب والبربر، إلى ملتقى بشري تتعايش فيه أساليب الحضارة والبداءة. وفي الغالب، تمكنت المدينة من احتواء هذه الهجرات. وعموما ظل الانشطار قائما والتعايش واردا. فقد غلب على بعض أماكنها الطابع القروي، وأخرى الطابع الحضري. هنا أيضا، للأسف، لاتسمح المعلومات بتفصيل القول في المجتمع وفهم متغيراته التاريخية.

وعلى الرغم من هذا النقص، يبدو جليا أن سلا كانت على الدوام مدينة منفتحة على مختلف الهجرات، الفردية منها والجماعية. وفي المقابل عمل النازحون على تعديل شخصية المدينة بما حملوه معهم من تراث شعبي أو أسلوب حضري رفيع. وتتمثل أهم هذه المؤثرات في قدوم أصناف متنوعة من الناس: الصلحاء واللاجئون والمغامرون والباحثون عن فرص اقتصادية.

لم تكن سلا قط مدينة كبيرة. تفيد أرقام القرن 19 أن ساكنتها ناهزت 14,000 نسمة. لكن، يجهل كل شيء عن تقلبات الحركة السكانية والديموغرافية، كما عن نسبة كل من الحضار والبدو. أيضا، يصعب تحليل البنية الاجتماعية للمدينة: مكوناتها البشرية، تحالفاتها، نزاعاتها. ما تشير إليه المصادر هو بعض فترات التوتر الاجتماعي. لكن اللافت للنظر هو ذلك التضامن الذي ميز أهل سلا في مواجهة التهديدات الخارجية، حيث تتألف كل شرائح المدينة مع بعضها البعض في نسيج واحد.

تلتقي الدلائل والإفتراضات الموظفة في هذه الدراسة

بكتابات مؤرخي المدينة، أمثال الناصري والدكالي، لكنها تدقق في معطياتها نون أن تتعارض معها. لقد اعتبر اسلا وأهلها كارقى طراز حضاري في المغرب بعد فاس، ونظرا إلى ماضي المدينة من زاوية الإنجازات العظمى لأئمتها ومآثرها وعلمائها وأوليائها، وحاولا في تعاملهما مع تاريخ المدينة إضفاء الشرعية على سمعة اسلا كموطن لجماعة إسلامية فاضلة. وبالفعل، هذا ما اشتهرت به المدينة في مجموع البلاد.

لقد ألحت الإسطغرافية المحلية على هذه الصورة المثالية. وإلى جانب ذلك، توجد شهادات شفوية تتناول قضايا أخرى حول شخصية المدينة. لقد ساد إحساس بين الناس مفاده أن المدينة تكونت من الوجهة النفسية بفعل القلاقل التاريخية. وتفسر ظروف الاضطراب التي تم التكيف معها، العقلية المتشددة للسلابيين كما يعترف بذلك هؤلاء أنفسهم. لقد تميزوا بالكبرياء والثقة بالنفس والإرتباط الشديد برموز الهوية الجماعية، وفي ذات الوقت بالعمل والطموح والمرونة والتأقلم مع الطوارئ وحسن استغلال الفرص. ثم إن التمييز بين الممكن والمستحيل حدد نسقا أخلاقيا خاصا بالمدينة، يقوم على أساس الإسلام بتعبيراته المتعددة: الإيمان، الشرع، الثقافة، اللغة. وتتجلى أهم التراكمات التاريخية على النحو الذي تتمثله العقليات، حسب ما أعلمه حول القرن التاسع عشر على الأقل، في الأنس والسكينة والعفة، كما يدعو إلى ذلك الدين الإسلامي. فبواسطة حسهم التاريخي وأيضا الإسلامي، كونهم عرب ومدنيتهم إسلامية تكون لدى السلابيين، بكل تأكيد، تصور منسجم للعالم ومكانتهم فيه. إنه نسق روحي يتسع بما فيه الكفاية لكل تفاعلات الإسلام في المغرب. وعلى الرغم مما ميزهم من محافظة فقد أحسنوا

التعامل مع المتغيرات التاريخية .

علاوة على ذلك، تمنح هذه الدراسة مجالا آخر للنقاش حول المدينة الإسلامية(3). فإذا اقتصرنا على الغرب الإسلامي سنجد أنفسنا أمام مدينة ميناوية هامة، تشبه طنجة وسبتة ووهوان والجزائر وتونس ومدن أخرى، وتختلف عن حواضر إسلامية أخرى في الشرق. والواقع، تبدو المراسي أقل أهمية بالمقارنة مع المدن الداخلية الكبرى المتحكمة في تجارة القوافل، مثل فاس وسجلماسة والقيروان. لكن كينونة سلا وأهميتها، على غرار المدن الساحلية الأخرى، يساعد على الأقل على تعديل الرأي القائل بنزوع المواقع الحضرية نحو الداخل إبان تقلص التأثير الغربي ما بين 600 و1800 (4).

تعتبر سلا، على مستويات متعددة، نموذجا تقليديا للمدينة الإسلامية. فهي تتوفر على مساجد عظيمة وحمامات وأسواق ومرافق إدارية. لكنها تفتقد، من جهة ثانية، وفق ما تفترضه بعض الدراسات، لخصائص أخرى. وبالمقارنة مع الطراز الشرقي تمتعت سلا في فترات معينة بحكم ذاتي محلي. وبالفعل، يبدو أنها قد تمكنت خلال بعض السنوات من القرن 17 من تأسيس دويلة ذات حكم مستقل. زيادة على ذلك كان للسلاويين حس قومي. والحقيقة، لم تكن لـ "القومية" إطار قانوني بامتيازات وواجبات محددة. لكن وجدت "قومية" بالمفهوم العرفي: فالسلاويون، بالشكل الذي يرون به نواتهم ويراهم به الآخرون، أهل يرتبطون بعضهم ببعض بواسطة النسل أو طول الإقامة أو صلات القرابة. وهم بذلك يميزون أنفسهم عن الغرباء، "البرانيون"، لكون هؤلاء لم يقيموا طويلا بالمدينة أو لأنهم لم يندمجوا بالمصاهرة في التركيبة الاجتماعية.

ويكمن فرق آخر بين سلا ونموذج المدينة الإسلامية في الانعدام النسبي لوجود تحيز ديني أو عرقي أو لغوي. فقد شكل اليهود أقلية بسلا، لكنهم لم يتجمعوا في حي خاص بهم "الملاح" إلا في القرن 19. فباستثناء الطقوس والقرابة، مثل اليهود جزءاً لا يتجزأ من النسيج الاجتماعي والاقتصادي والثقافي، وأسهموا في بلورة هوية المدينة ككل. حقا، لقد كانت هنالك توترات ونزاعات بين اليهود والمسلمين، كما كان عليه الأمر بين الأغنياء والفقراء أو بين فرقاء آخرين، بدافع القرابة أو المصلحة، لكن، ظل التآزر بين فعاليات المدينة قائماً على الدوام. اعتمدت سلا في اقتصادها على البحر والبر على السواء أي التجارة الملاحية ومبادلة منتجات الحرف بمنتجات الفلاحة. ويتجلى هذا الانفتاح الاقتصادي والترابط البيئي في التجمع السكاني للمدينة، المكون من الحضر والبدو. فقد حملت إليها الهجرات المتواصلة تأثيرات اجتماعية وثقافية، لكن دون أن تغير من بنياتها الأساسية أو قيمها، أي دورها كحاضرة إسلامية.

من الممكن رؤية الوظيفة الثقافية لسلا من منظور الثنائية المقترح من طرف ريد فيلد وسينجر، بين المدن "الأورتوجينية" والمدن "الهيتروجينية"⁽⁵⁾. الأولى تنزع نحو نماء الثقافة وتبلورها على نحو تدريجي ومحلي. أما الثانية فتتجه نحو ابتكار قوالب فكرية تسعى إلى الهيمنة أو الصراع مع ثقافات قديمة. والواقع أن الصنفين معا يضمنان كلا الخاصيتين، لكن غلبة هذا الاتجاه أو ذلك يمكن من تحديد نوعية المدينة أو فترة معينة من تاريخها. من هذه الزاوية، تظهر سلا وهي تتحول من قاعدتها البربرية على عهد الرومان، إلى هيئتها العربية - الإسلامية، كمدينة هيتروجينية. ومن وجهة أخرى، تبدو المدينة، بالنظر إلى

وظيفتها الثقافية اللاحقة، أي في المرحلة الإسلامية، ذات صبغة أورتوجينية محضة. أما إذا قارناها بالمدن المغربية الأخرى فستظهر أقل أورتوجينية من فاس وربما أيضا مراكش، وأكثر من جارتها الرباط وطنجة. وقد تنطبق هذه التباينات على المغرب المعاصر حيث يمكن اعتبار الدار البيضاء مدينة هيتروجينية.

في هذا السياق يبرز تميز تاريخي آخر بين سلا وفاس علما أن السلاويين كانوا دائما يقيسون أنفسهم بالفاسيين. لقد مثل كلاهما منارة للحضارة الإسلامية ونموذجاً للخصال الروحية. لكن، عانت سلا دوماً على الرغم من افتخارها بالامتياز الديني والاقتصادي، من هامشيتها بالنسبة للعواصم السياسية، فاس مراكش، مكناس، الرباط. ومع أن علاقتها بالسلطة المركزية لم تكن منعقدة، حيث كان بعض السلاويين قد تقلدوا مهام إدارية في السلك المخزني، فإنها لم تؤثر بقوة في الحياة السياسية. إنها التبعية التي ولدت في نفوس أهل المدينة إحساساً بالطمس.

لقد ركزت على خاصيات المدينة لأمنح للقارئ صورة حية حول سلا وأهلها. والجدير بالإشارة أن تاريخ سلا يعكس ملامح عديدة للمجتمع المغربي وتطوره التاريخي. فسواء تعلق الأمر بالمغرب أو بسلا، يظل الماضي مفعماً بحركة البشر والفكر. إنها أرض اللجوء، أرض المغامرة، أرض الفتح، أرض الإيمان أرض الاختمار الثقافي. يمكن النظر إلى سلا كصورة مصغرة لمميزات الغرب الإسلامي لما تتمتع به من سمات. فهي تختلف عن نموذج حضرة الشرق الإسلامي لكنها تشترك معه في خضوعها لنظام حكم مشرقي على النحو الذي أظهره الموحدون. إنها موطن الصوفية والطرق الدينية والحس الروحي.

ويمكن رؤية الهوية المحلية لسلا كوجه آخر للقومية بالمغرب ككل. فقد نشأت هنا وهناك في القرن 16 و17 حركات جهادية للدفاع عن البلاد والدين ضد الهجوم الأجنبي مما ساهم في خلق إحساس قومي. هنا وهناك أيضا، سعى الناس إلى الانفتاح على الشرق وإفريقيا السوداء وأوروبا الغربية من أجل رخاء الاقتصاد وتفاعل الثقافة. في هذا المقام، لا يسع المرء وهو يكتب تاريخ المغرب سواء في منظوره العام أو المونوغرافي إلا أن يشدد على قوة حضارته ونبوغ أهله.

ملاحظة : احتفظنا عند وضع الموامش بالعناوين الأصلية عند ذكرها لأول مرة، وقمنا عند تكرارها باختزالها على الطريقة العربية.

(1) — لقد قدمت نتائج الأبحاث التي قمت بها في فرنسا والمغرب ، ما بين 1965 و 1967 ، في الأطروحة التي حضرتها في تخصص الدراسات الإسلامية:

The Social History of a Moroccan Town : Salé, 1830-1930 , University of California, Los Angeles, 1969.

(2) — أنظر بخصوص معالجة تاريخ شمال إفريقيا من منظور تقلبات تجارة الذهب مع السودان وأوروبا :

Y.LACOSTE, Ibn Khaldun. Naissance de l'histoire passée du tiers-monde, Maspero , Paris ; 1966.

وأبضا فرضيات عبد الله العروي حول المورثات الأوربية، العسكرية والاقتصادية، على التطورات في المغرب:

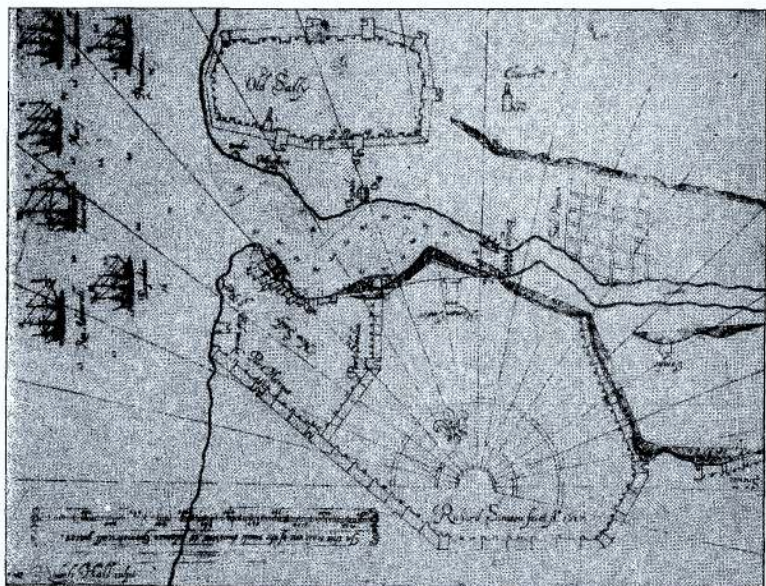
L'histoire du Maghreb, Maspero, Paris , 1970.

(3) — تقدم ثلاث دراسات صدرت مؤخرا بالإنجليزية معطيات جديدة وتعهد النظر في نتائج الأبحاث الأولى المرتبطة بالموضوع :

A.H. Hourani and S.M. stern (eds.), The Islamic City A. Colloquium, Oxford, 1970, I. Lapidus (ed), Middle Eastern Cities : Ancient, Islamic and Contemporary Middle Eastern Urbanisme. A Symposium, Berkeley, 1969 I. Lapidus, Muslim Cities in the later Middle Ager, Cambridge, 1967. Cf. F.P.H.E., 6° section : Sciences économiques et sociales. Division des aires culturelles. Les villes. Entretiens interdisciplinaires sur les sociétés musulmanes, Paris, 1958.

4) — Cf. C. Issawi, « Economic Change and Urbanization in the Middle East : A Historical Analysis » in I. Lapisus(ed), op. cit.

5) — R. Redfield and M. Singer, « The Cultural Role of Cities », in Economic Development and Cultural change, vol .III, n°1 , oct., 1954 pp. 53 – 77.



سلا والرباط (1637)

الفصل الأول

نشأة مدينة إسلامية

يقدم الساحل الشمالي المحاذي للرباط، عاصمة المغرب اليوم منظرا رائعا لأبي رقراق وعدوتي الرباط وسلا. فعلى الضفة اليمنى، على مقربة من القنطرة التي شيّدت بعد الاستقلال، ينتصب باب كبير، قائم وعظيم: "باب لمريسة"، أي "باب المرسى الصغير" ويمثل هذا الباب الذي يكون تقريبا الزاوية الجنوبية الشرقية لسلا، أحد أجزاء أسوار المدينة منذ القرن الثالث عشر .

ومن القنطرة، يظهر التقاء المحيط الأطلسي بنهر أبي رقراق على مسافة ميل تقريبا. في شمال الوادي، على الجهة اليسرى تطل قصبة الأودية التي بنيت خلال القرن الثاني عشر. وخارج أسوار القصبة، أخذت المدينة القديمة للرباط اتجاهها نحو الجنوب والشرق. تشرف على هذا المشهد كله صومعة حسان على الجانب الأيسر من الطريق الرابطة بين سلا والرباط عبر القنطرة. ويعود تاريخ هذه الصومعة إلى القرن الثاني عشر.

من أعلى الصومعة، في اتجاه عرض الوادي تظهر سلا كمدينة صغيرة ومتراصة. كل شيء بها أبيض باستثناء المنارة الموجودة بوسطها. وبمحاذاة المدينة يبدو المحيط وكأنه يسارع نحو الوادي ليفرغ مائه فيه. أيضا ومن نفس الموقع، لكن هذه المرة في اتجاه عالية الوادي، على الضفة اليسرى، تطل على النهر قصبة أخرى شامخة بأسوارها العالية. إنها شالة التي استعملها الملوك المرينيون مقبرة لهم في القرنين 14 و15 والتي كانت في القديم مدينة رومانية، "سلا كولونيا"، وفيما قبل مركزا فينيقيا يدعى سلا أو شالة.

يعالج المؤرخون المغاربة التقليديون التاريخ ما قبل الإسلامي لهذه المدن بإيجاز. يقول ابن علي الدكالي في "الإتحاف

الوجيز": "غير خفي أن وجود [مدينة سلا وعودتها شالة] سابق على الإسلام بكثير، والحضر والحكمة كانت فيهما قبل الإسلام... فالقرطاجيون كانوا قد دخلوا إلى المغرب قبل الهجرة النبوية بـ 1468 سنة تقريبا... ثم استولى على الإقليم الرومان... فبقي أهل المغرب خاضعين لهم معتقدين لديانتهم متخليين بأخلاقهم زمنا طويلا. ثم جاء الوندال فافتكوا بلاد المغرب من يد الرومان، وذلك قبل الهجرة بـ 156 سنة تقريبا... ثم استردها منهم قهرا أحد قياصرة القسطنطينية، ودامت تحت سلطة الروم... إلى أن فتح الله هذا القطر المغربي بالإسلام. وقد كان سكان تامسنا، البلاد التي تجاور العدوتين، على دين النصراني حتى أظلمهم الإسلام ونوره".

تتميز أغلب المصادر العربية المتوفرة والتي تخبرنا حول القرون الثلاثة الأولى للمرحلة الإسلامية في المغرب، بكونها متأخرة. تروي كتابات ابن عذاري في القرن 13 وابن خلدون في نهاية القرن 14 بأن سكان أبي رقراق كانوا يتكونون من النصراني واليهود حتى بعد مجيء الإسلام إلى المغرب بأكثر من قرن (6). من الصعب تحديد زمن اعتناق سكان هذه المنطقة للإسلام. لقد بدأ عقبة بن نافع فتحه الإسلامي للمغرب سنة 683. أما موسى بن نصير الذي حط بالبلاد في مطلع القرن 8، فقد مر بهذه الجهة، وربما أدخل عددا منهم إلى الدين الجديد. غير أن عملية الفتح هاته كانت غير كاملة. ويعود الفضل في إتمامها إلى مولاي إدريس الأول الذي باذر بعد تلقيه قسم البيعة من أهل زرهون سنة 789، إلى فتح سلا وشالة وما جاورهما من بلاد تامسنا وتادلا، فكان فتحا حقيقيا (7). وحسب ابن خلدون دخلت سلا في دين الإسلام بفضل وجودها بالمنطقة التي تركها إدريس

الثاني لأخلافه عقب وفاته سنة 828. منهم عيسى الذي نصبه أخوه محمد حاكما على مدينتي شالة وسلا وأزمور وتامسنا والقبائل المجاورة. لكن تمرده، بعد ذلك بقليل، ضد أخيه عمر جعله يترك سلا وباقي المنطقة الوسطى(8).

في هذا السياق، صارت منطقة أبي رقرق تخما للإسلام السني في مواجهة الهراطقة. ومعلوم أنه حوالي أواسط القرن التاسع كان زعيم قبائل برغواطة البربرية قد اعتنق علانية المذهب الخارجي وأسس مملكة في إقليم تامسا، تمتد من أبي رقرق إلى أم الربيع(9). بعد ذلك بقرن، أي سنة 977 كتب ابن حوقل، الجغرافي المشرقي، بخصوص سلا قائلا: "من وراء وادي سبه إلى ناحية برغواطة على نحو بريد وادي سله، وإليه ينتهي سكنى المسلمين. وبسله رباط يرابط فيه المسلمون. وعليه المدينة الأزلية المعروفة بسله القديمة وقد خربت. والناس يسكنون ويرابطون برباطات تحف بها، وربما اجتمع في هذا المكان من المرابطين مائة ألف إنسان يزيدون في وقت وينقصون لوقت، ورباطهم على برغواطة من قبائل البربر على البحر المحيط متصلين بهذه الجهة التي سقت عمارة بلد الإسلام إليها يغزون ويسبون"(10).

استنادا إلى هذا النص، يوجد الرباط المذكور الذي تجمع فيه الجنود لمحاربة أعداء الإسلام السني، على الضفة اليسرى للوادي. ومهما يكن، يوحى استعمال لفظ "سلا القديمة" من طوف ابن حوقل أن مدينة سلا التي فتحها مولاي إدريس ظلت مركزا دائما. ويبدو أنها المدينة التي حملت فيما بعد تسمية "سلا الجديدة". ورغم أن مصادر هذه الفترة تبقى هزيلة وغامضة فإنها تشير إلى إمكانية وجود المدينة بالموقع الحالي لسلا.

ويرى ابن خلدون اعتمادا على كتب أنساب البربر أن الحرب تواصلت ضد البرغواطيين بفضل قيام "مملكة شالة" في أواخر القرن العاشر. وهي المملكة المكونة من قبيلة بني يفرن الزناتية التي لعبت دورا هاما في تاريخ شمال إفريقيا خلال القرون الثلاثة الأولى للإسلام. فقد تمكن زعيمها، حمامة بن زييري، من التخلص من قبضة بني مغراوة على المدينة واستطاع ابنه تميم جعل شالة عاصمة له وقاعدة لعملياته العسكرية ضد مغراوة وبرغواطة. هكذا، ظلت المدينة في يد بني يفرن إلى أن فتحها المرابطون في أواخر القرن الحادي عشر (11). والواضح أن القصد هنا من شالة هو سلا، أي الموقع الكائن بالضفة اليمنى للنهر. يظهر ذلك بكل تأكيد من خلال نص من أواسط القرن 11، لأبي عبيد البكري، يشهد على خراب شالة، المدينة القديمة الموجودة بالضفة اليسرى للوادي. أما المعلومة الوحيدة التي يقدمها لنا بخصوص الضفة الأخرى فتتعلق بوجود زراعات جيدة وساكنة (12). بناء على هذه المعطيات، يمكن الافتراض أن سلا قد تحولت بين القرنين 10 و 12 من معسكر إلى مركز حضري إسلامي.

- قيام سلا كمدينة .

" سمعت من غير واحد ممن أثق به أن بني العشرة الذين بنى والدهم مدينة سلا بأرض المغرب، كان سبب بنائه إياها أنه ولد له عشرة ذكور من حمل واحد من امرأة له، فجعلهم في مائدة ورفعهم إلى أمير المؤمنين يعقوب المنصور الموحد فاعطى كل واحد منهم ألف دينار وأقطع أباهم أرضا بوادي سلا فبنى بما مدينة تعرف إلى الآن ببني العشر" (13). روى هذه الأسطورة العجيبة حول نشأة سلا العلامة التونسي الشهير، ابن

عرفة، في القرن 14. والراجح أن يكون هذا الأخير قد استند في روايته إلى أحد تلامذته من سلا. فماذا تمثل هذه الأسطورة ؟ يرى ابن علي الدكالي أن إحياء المدينة كان حوالي 1030 ويقر أن بانيها هو ابن عشرة. ثمة مبررات لهذا التاريخ. فقد كتب صاحب الإستبصار في أواخر القرن 12 أن حكام المدينة العشريون، وأتباعهم أقاموا حاضرتهم على الضفة اليمنى، "المسماة اليوم بسلا"، واستقروا هناك في حومة الجامع الأعظم(14). زيادة على ذلك، وكما كتب ابن شريفة، حملت سلا في بعض النصوص الأولى تسمية "مدينة بني العشر". ولا تزال بعض الأصداء الغامضة لهذه التسمية عالقة في الرواية الشفهية لأهل المدينة.

هنا نجد أنفسنا على أرضية تاريخية متينة لأن الوثائق تشير بوضوح إلى بني عشرة. فخلال القرن العاشر، كانت الدولة الأموية بقرطبة قد عينت جد هذه الأسرة، حاكما على المغرب الأوسط لمدة من الزمن. ويبدو أن حفيده، القاسم، هو أول من استقر من أفرادها في سلا(15). ويساعدنا المؤرخ السلوي، ابن علي، من خلال فقرة خصصها لابن القاسم، على وضع ترتيب زمني وفهم المفاهيم التاريخية وروح الشهامة التي تمثل جزءا من الصورة الذاتية للسلاويين: "أبو العباس بن القاسم الذي عاش في أواسط القرن 11، خلال العهد المرابطي، من بيت بني العشوة الذين ورثوا المجد بسلا من قديم... وهم بدور سمائها وصدور أسمائها وأعيان سلا وزعمائها وأفاضلها وكرماؤها. وكان واسطة عقدهم... وأبو العباس هذا هو باني القصر العجيب بسلا الذي صار بعد منزلا للملوك الموحديين"(16).

علاوة على ذلك، يذكر ابن علي من بين صلحاء المدينة

سيدي عبد الله بن عشرة المنتمي هو أيضا إلى القرن 11. هذا الولي المدفون على الأرجح في قبر يعرف الآن بسيدي الحاج عبد الله الغليظ، بحومة باب احساين ، لا يزال إلى اليوم محط توقير من طرف السلوبيين. ويبدو ابن علي متيقنا من أن الولي المذكور هو ابن القاسم. وقد ظهر فيما بعد ضمن هذه العائلة الأندلسية الشريفة رجال آخرون ذوو شهرة، تميزوا بالتقوى والعلم، لكن لم يحظ أحد منهم بإشارة في المصادر بعد القرن 13. ومع ذلك بقي في المدينة رجل عجوز صالح، درّاز الحرفة يعتبر نفسه من أخلاف بني عشرة. إنه آخر أفراد الأسرة السلوية المعروفة باسم أولاد الغليظ.

ابتداء من القرن 12، تصبح المادة التاريخية أكثر وفرة وإقناعا. فضلا عن ذلك، يتجدر في المدينة قسم من الساكنة الحالية قبل هذا التاريخ. فقد كانت سلا تخمأ في القرنين 10 و 11، تجمع فيه عدد هائل من الجنود. ويظهر أنها كانت معسكرا لمملكة زناتة البربرية. ومع نهوض المدينة واستقرار بني عشرة بها ، نزحت إليها عناصر جديدة، أهمها حضر الأندلس. لا يميز ابن علي بين العرب والبربر، لكنه يؤكد أن تاريخ سلا كحاضرة وكأهل يبدأ مع بني عشرة. فقد بنوا بها مسجدا عظيما، الأول من نوعه بالمدينة، وأقاموا حوله أول أحيائها. هكذا قدم إليها الإسلام أكثر مما أظهرته الروح الجهادية للمستوطنين البربر الأوائل. لقد حمل معه، حسب ابن علي: "أحكام البناء واستخراج المياه وجودة المنسوجات وإتقان الغراسة والفلاحة وأحكام صناعة الطين من أجور وماعون وما عدا ذلك لا يعرف له أثر (قبل الإسلام) ولما جاء الإسلام الحامل لراية التمدن والحضارة والمعارف...عمرت أسواق المعارف والحرف

والصناعات... فاستحكم التمدن في سلا وتواصلت حضارتها" (17).
 هكذا صارت سلا ، في وقت مبكر من نمائها، حاضرة
 مركزا للحضارة الأندلسية، مدينة بوجوازية بامتياز، عاصمة
 اقتصادية وثقافية ودينية. لقد شكلت صحبة فاس وتطوان وأيضا
 الرباط فيما بعد، واحدة من الحواضر الأربعة للمغرب، حيث
 شموع المعرفة والذوق المرهف (18). لكن، تجب الإشارة إلى أن
 سلا لم تشهد هجرة واسعة للأندلسيين على غرار ما عرفته المدن
 الأخرى. فقد ظل عدد سكانها المنحدرين من الأندلس قليلا على
 الرغم من بني العشرة وأسر أخرى. لقد شكلت قبيلة زناتة أسس
 ساكنتها الأولى وازدانت أعداد البربر بالمدينة مما تبقى من
 مملكتي بني يفرن وبرغواطة عقب الاكتساح المرابطي عند نهاية
 القرن 11 . وبالفعل، جذبت سلا عبر تاريخها ، وباستمرار عددا
 من المهاجرين، البربر بالأساس . وقد منح هذا الخليط بين
 ثقافتى وعقليتي عرب الأندلس والبربر الأهالي صفة بالغة
 الأهمية للمدينة (19).

(6) — حسب ابن عذاري، كان طارق بن زياد قد استقر بسجلماسة قبل فتحه لإسبانيا عند مطلع القرن 8 لأن منطقة سلا كانت تابعة للنصارى. راجع :

E. Fagnon, Histoire de l'Afrique et de l'Espagne , Alger , 1901, p.39.

(7) — ابن علي الدكالي ، الإتحاف الوجيز، مخطوط خ.ع. الرباط ، د. 1320 ، ص:8.

(8) — Histoire de Berbères, trans. Dy De Slane, Alger, 1854, II, Appendix IV, p. 563, D. Eustache, « Idrisids », in E.I.2, p. 1035.

(9) — Cf. R. Le Tourneau, « Barghwata », in E.I.

وحول إقليم تامسنا أنظر :

A. Adam, Histoire de Casablanca des origines à 1914, Aix-en-Provence, 1968, pp.28s.

(10) — Kitab al - masalik wa - l - mamalik, ed.by. M.J. de Geoje, Pzrt II, Leiden, 1873, p. 56.

(11) — كتاب العبر، 3 ، ص186 ، 221 ، 235 ، 251.

(12) — De Slane, Description de l'Afrique septentrionale, Alger, 1867, p.87.

وبخبرنا صاحب كتاب الاستبصار في نهاية القرن 12 بأن سلا كانت تدعى شالة من طرف الأحناب ، أنظر :

E. Levi - Provençal, Extraits des Historiens Arabes du Maroc, Paris 1948, p.45.

(13) — محمد بن شريفة، "أسرة بني عشرة"، مجلة تطوان ، ع 10، 1965 ، ص179 ن عن مختصر ابن عرفة (ت 1401) ، مخطوط خ.ع. ن الرباط.

(14) — كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار، نشر سعد زغلول عبد الحميد ، الإسكندرية 1958 ، ص:14.

(15) — ابن شريفة، ن.م. ، ص179. أنظر أيضا:

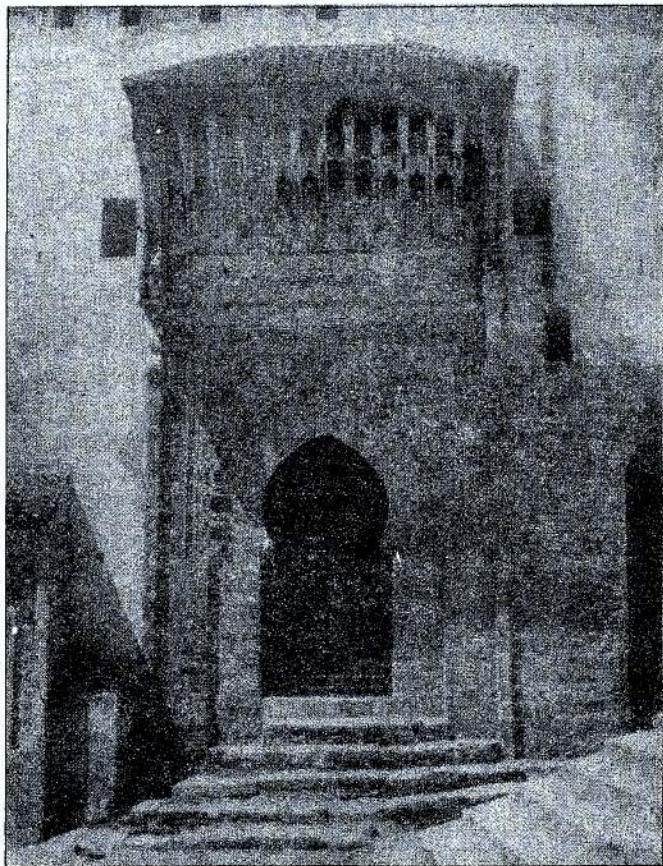
E. levi- Provençal , Documents inédits d'histoire almohade, Paris, 1928, p.106.

(16) — الإتحاف الوجيز ، ص: 74.

(17) — نفسه، ص: 21 - 22.

(18) — J.L. Miège, Le Maroc et l'Europe, Paris, 1962, III, p. 24, n.2.

(19) — للمزيد من التفاصيل بخصوص هذه القضايا وأيضاً حول عائلات سلا في القرن 19، راجع ك. براون، ن.م.



المدرسة البوعنانية

الفصل الثاني

نماء سلا

المرابطون (1061 - 1146) والموحدون (1130 - 1269)

اتساع المدينة :

خلال المرحلة الممتدة من أواسط القرن الحادي عشر إلى أواسط القرن الثالث عشر، نمت مدينة سلا على غرار المدن المهمة الأخرى في المغرب. في بداية القرن الثاني عشر، كان بربر زناتة وعرب الأندلس يقطنون في ثلاث حومات على الأقل، لا تزال موجودة إلى اليوم:

- (1) - الطالعة، قرب الجامع الأعظم، ويسكنها بنو عشرة .
- (2) - زناتة، عند قدم عقبات الجامع.
- (3) - البليدة. كان هذا المجال محصنا، تحيط به الأسوار التي تعرضت بعض أجزائها للهدم في النصف الأول من القرن الثاني عشر إثر استيلاء الموحدون على المدينة.

والظاهر أن المدينة اتسعت خارج أسوارها منذ العهد المرابطي فقد أنشأ يوسف بن تاشفين مسجدا جديدا للجمعة هو جامع الشهباء، بعيدا عن نواة المدينة، في اتجاه الشرق. وقد كشفت الحفريات التي أجريت بهذا الموقع تحت الرمل والأعشاب في بداية القرن الحالي، على أعمدة رخامية ربما أتت بها من خرابات شالة الرومانية. جامع آخر بناه الموحدون في نفس الاتجاه هو مسجد داوود الذي ظلت صومعته، المسماة ب"بورمادة"، قائمة حتى بداية هذا القرن، رغم أن تلتئها مدفونان تحت سطح الأرض(20). توحي هذه المساجد الناشئة بتزايد سكاني ملحوظ داخل المدينة خلال القرنين 12 و 13 وبنمو حي شعبي بعيد عن المركز الحضري الأصلي(21). ومن المحتمل أن يكون الهدف من بناء هذه المساجد الجديدة هو إيقاف تسرب القادمين الجدد من البوادي إلى الحومات الداخلية. وهكذا يمكن اعتبار الازدواجية التي تشهدها سلا اليوم بين نواة حضرية داخلية

وهامش قروي مجاور، سمة مميزة لتنظيم المجال والبنية الاجتماعية للمدينة منذ زمن مبكر.

ومن جهة أخرى، يظهر أنها كانت منذ القرن الثاني عشر قبلة للمعارف الدينية. فقد زارها ابن تومرت، مؤسس الدولة الموحدية، سنة 1121 حيث أقام بمنزل الفقيه أحمد بن عشرة وقدم دروسا لزواره. ورغم ما تعرضت له أسوار المدينة من هدم على يد عبد المومن بن علي، بعد اثني عشر سنة من تلك الزيارة، فإنها ظلت ذات أهمية تحت سلطته (22)، في وقت كانت فيه الرباط مدينة صغيرة ومجرد محل لإعداد الجيش الموحدى الموجه نحو الجهاد بالأندلس، وإن كان الخليفة قد توفي بسلا سنة 1163 قبل عملية الجهاد هاته. لقد وفرت الرباط وسلا للمرابطين والموحدين معسكرا رئيسيا (23)، وشكلتا في نفس الوقت عاصمة ثانية للدولة، بعد مراکش وإقامة صيفية للسلطين. والواقع أنهما مثلتا مركزا للسلطة أكثر مما كانت عليه العاصمة نفسها بالخصوص في أواخر العهد الموحدى.

في نهاية القرن الثاني عشر اكتملت ساكنة سلا مع نزوح البربر من مختلف أنحاء شمال إفريقيا والعرب من تونس والنصارى المهجرين من مملكة غرناطة (24)، في وقت اتسعت فيه هندسة المدينة بشكل كبير تحت حكم الأمير الموحدى يوسف. أما على الضفة الأخرى من الوادي، التي كان ينتقل إليها الناس عبر قنطرة خشبية وقت الجزر، فقد نمت مدينة جديدة أي الرباط، بمنارتها حسان الهائلة، التي بنيت في عهد يعقوب المنصور لتلعب إلى جانب وظيفتها الدينية، دورا عسكريا.

وعلى نفس الطراز كان لسلا مسجدها الأعظم: الجامع الكبير الذي بناه الموحدون في أواخر القرن 12، بالمكان الأصلي

لمسجد بني عشرة. وهو مسجد مساحته كبيرة جدا، توازي سعة مسجد القرويين بفاس. وقد شيد بأعلى موقع في المدينة مما جعل صومعته ذات الهيئة المستطيلة والجرداء تشرف على المدينة ظاهريا وروحيا. وتذكر المصادر أيضا أن هذا البناء الذي سهر عليه مهندس غرناطي، ساهم فيه ما يقرب من سبع مائة أسير نصراني وصناع مسلمون من الأندلس وأيضا بناؤون من سوس خصوصا فيما يتعلق بتشييد حومة الطالعة المجاورة للمسجد(25). وعلى الرغم من هذا البناء الجديد، فقد تم الحفاظ على جزء قديم من الجامع لاحتوائه على قبر أحد صلحاء القرن الثاني عشر (26)

قبلة الصلحاء:

تتجلى سمعة سلا وشهرتها بالأساس منذ القرن الثاني عشر، في داخل المدينة وخارجها، في تميزها باحتضان رجال التقوى. وحسب ابن علي، تكمن هذه الشهرة في حضارتها وتجارتها، في كونها نقطة لانطلاق عمليات الجهاد وموطنا للفقهاء وقبلة للسادات والأولياء. لقد أشار اليوسي في القرن السابع عشر إلى هذا التقليد ونظم شعرا نعت فيه سلا بمقصد النساك(27). وإلى اليوم لازال يتكلم أهل فاس عن سلا كخلوة.

في هذا السياق نذكر شخصين كبيرين عاشا في القرن الثاني عشر وحظيا بتوقير عظيم من لدن السلويين. إنهما ابن العباس وأبو موسى(28). وتدل التراجم المتوفرة حولهما عن الرؤية التي يحملها أهل المعرفة في سلا حول الإرث التاريخي للمدينة وخاصيتها، كما تكشف النقاب عما يعتبره المجتمع من مثال إنساني وقيم دينية.

1 - ابن العباس :

توفي سيدي "بلعباس" (29) كما هو معلوم في سلا سنة 1145

ودفن خارج باب فاس، المعبر الرئيسي للمدينة من الجهة الشرقية، بالمقبرة المعروفة اليوم باسمه. كان رجلا ذا ثروة هائلة، ومع ذلك اختار، مع تقدمه في السن، الانعزال عن الناس والابتعاد عن أمور الدنيا والتصدق بكل أمواله على المحتاجين لينفرغ لعبادة ربه. ومن مناقبه أنه حفر قبره بيده لما أحس بأقتراب منيته. وقد ذاع صيته شيئا فشيئا، حيث لم يشيد ضريحه الجميل إلا بعد مرور قرنين عن وفاته، وذلك بأمر من أبي عنان المريني. لكنه رمم فيما بعد، لما أصابه الخراب، تحت رعاية مولاي إسماعيل. فأخذ الضريح شكله الحالي وأشرف على شؤونه، بتعيين من السلطان، أحد الأشراف العلويين، محمد بن سعيد الذي كان قد استقر بسلا في أوائل القرن السابع عشر وظلت بالتالي عائدات الضريح بيد أخلاف هذا الأخير. وهكذا بقيت مناقب سيدي بلعباس خالدة في ذاكرة السلاويين بواسطة هذا الضريح ودعمت رموز المدينة وقيمها الدينية(30).

2 - أبو موسى:

يعتبر قبر أبي موسى الدكالي، الولي الصالح، المعروف بـ"سيدي موسى"، من أهم أضرحة المدينة. عاش هذا الرجل في القرن 12. وحسب ما ترويه كتب المناقب، كان سيدي موسى "بوهالي"، يعيش من بقول البرية وسمك البحر، يبيعهما ليشتري بثمنهما خبزا، يترك لنفسه خبزتين ويتصدق بالباقي على المساكين، وكان كلما أقبل موسم الحج تغيب عن الناس متعللا بزيارة أهله بدكالة. وقد أقام على ذلك مدة اثني عشر سنة حتى أخبر بعض الحجاج أنهم رأوه بالحجاز(31). ومن كراماته أيضا انقلاب عسلوج الكلخ حلوا طيبا واختصار الطريق وطيبها. وتقول نفس الكتب أنه أعد كفته بنفسه باقتصاده بضعة دراهم كان قد

كسبها من حراسة الكروم بالاسكندرية. هذه الدراهم إضافة إلى نسخة من المصحف الكريم كانت كل ما يملك (32).

كان سيدي موسى يقضي الليل في غرفة بدار القاضي الحالية. تلك البناية القديمة التي كانت أول الأمر فندقا للزيت في حياة هذا الولي، ثم مارستانا في عهد المرينيين وفيما بعد فندقا "اسكور" للسلع الواردة من البوادي، وذلك حتى بعد الحرب العالمية الأولى. عند وفاته تنافس أعيان المدينة في دفنه. فقد أراد كل منهم إيواء قبره برياضه. هكذا دفن أول الأمر، داخل المدينة، برياض بني عشرة، إلا أنه نقل بعد أسبوع إلى الموقع الحالي لقبره بشاطئ البحر، على مسافة ميل تقريبا من جهة الشمال. هنا بنت عليه ملالة بنت زيادة الله قبة رائعة مكلفة. وهي القبة التي رممها مولاي إسماعيل بعد أكثر من خمسة قرون.

احتضن الضريح، حتى مطلع القرن الحالي، موسما سنويا لمدة ثلاثة أيام من شهر غشت، جلب إليه عددا هائلا من سكان المدينة وأهالي القرى المجاورة. هؤلاء بالخصوص كانوا يأتون في قوافل وينصبون خيامهم على طول الساحل. ويعود هذا الاحتفال المتميز، وإن كان يرتبط بتقليد قديم إلى أوائل القون 18 حيث كان يتقدم الضريح أحد الأشراف العلويين بالمدينة. لقد استقطب هذا الموسم، أكثر من غيره، خلقا كثيرا من خارج المدينة (33). هذه الشعبية، مع ما تحدثت عنه كتب المناقب من فضائل التقوى والزهد، زانت من تجميل صورة الولي كرجل يعيش من الفلاحة التي هي أسلوب المعاش اليومي لغالبية الناس. وعلاوة على هذا التجانس مع قيم هؤلاء، اعتبرت البركة النابعة من زيارة الضريح والاستحمام بإحدى المغارات المجاورة له

ذات فائدة في معالجة عقم النساء.

ولي آخر، من القرن الثاني عشر، لكن أقل شهرة من سابقه، هو أبو علي الشريسي البكاء، الأندلسي الأصل، السلاوي المدفن. لقد جسدت خصاله هي أيضا، قيما دينية رفيعة، لدى السلاويين. فقد كان كلما سمع آية من القرآن الكريم إلا وسالت عيناه بالدموع. كان رجلا تقيا، حج نحو عشرين مرة. ويوجد قبره بزاوية بناها بنو مريم، كانت بيد أتباع القطب الشهير مولاي أحمد الصقلي الفاسي، ثم انتقلت فيما بعد لأصحاب الطريقة الدرقاوية، أتباع الشيخ مولاي العربي الدرقاوي في القرن التاسع عشر. ففي هذه الزاوية، ولعدة قرون أنرفت عيون الناس دموعا لسماعها آيات القرآن الكريم، وفيما بعد أذكار طريقة درقاوة.

الحياة الاقتصادية :

تعتبر معلوماتنا حول أسلوب المعاش في سلا قبل القرن الثاني عشر هزيلة جدا. لكن ، بفضل الملاحظات الموجزة للإبريسي نستطيع الخروج ببعض الانطباعات حول النشاط الاقتصادي الرئيسي للمدينة في أواسط القرن المذكور: "هناك عمارات متصلة وزروع ومواش... وسلا على ضفة البحر... وهي مدينة حسنة حصينة في أرض الرمل. ولها أسواق نافقة وتجارات ودخل وخرج وتصرف. لأهلها وسعة أموال ونمو أحوال والطعام بها كثير رخيص جدا وبها كروم وغللات وبساتين وحدائق ومزارع. ومراكب أهل إشبيلية وسائر المدن الساحلية من الأندلس يقلعون عنها ويحطون بها بضروب البضائع. وأهل إشبيلية يقصدونها بالزيت الكثير وهو بضاعتهم ويتجهزون منها بالطعام إلى سائر بلاد الأندلس الساحلية" (34).

من المحتمل إذا، بناء على هذه النشاطات الفلاحية والحرفية (35) والتجارية أن تكون سلا قد شكلت مركزا اقتصاديا هاما بعد العاصمتين، فاس ومراكش، ومثلت المرسى الرئيسي للمغرب (36).



(20) — يرى ابن علي أن الموقع الأصلي للمسجد كان يشغله سوقا للنسيج. فقد أصابه الخراب في القرن 14 ثم دمر كليا خلال زلزال لشبونة سنة 1755. وقد أفادني أهل سلا أنهم عثروا تحت الأرض على بقايا بنايات قديمة وبعض القطع العظمية، لكنهم كتبوا هذا الاكتشاف عمافة أن تدخله سلطات الحماية الفرنسية ضمن "المآثر الوطنية". ويشير ابن علي أيضا أنه قبل 1912 تم العثور تحت رباط مول القاضي ابن حضراء، على قبور ذات شهادات جميلة ومنقوشة، لكن سرعان ما ردمت من جديد بدعوى وجودها بمحل حصوصي. وقد ظلت هذه الخرابات عالقة بذاكرة السلاويين. فيقال أن سلا ضربها الزلزال ست مرات وأن الهزة السابعة قد تكون مدمرة إن هي حصلت. وبالفعل كان زلزال لشبونة لعام 1755 قويا جدا بحيث عرض سلا لمد بحري هائل. أنظر، الإتحاف الوجيز، ص: 44، وأيضا :

Musée des Antiquités, Rabat, Dossier 5. Salé A à I., Villes et tribus du Maroc n Rabat et sa région, Vol I, P.101.

(21) — يرى ابن علي أن مسجد داوود جامع صغير، من الصنف الذي يوجد في الغالب بالقرب من الأسواق لتمكين الباعة من أداء صلواتهم من غير أن يتغيروا طويلا عن حوانيتهم. أما مسجد الشهباء فكانت تقام به صلاة الجمعة. وبدل موقعه علي أن عددا كبيرا من الناس فضلوا الصلاة هناك وتركوا المسجد الأعظم للقاطنين بوسط المدينة. ومعلوم أن مسجد الشهباء قد رمم وفتح من جديد في وجه المصلين بعد مجيء الفرنسيين بقليل، وذلك لنفس الغاية، أي لتخفيف عن المسجد الأعظم. راجع الإتحاف الوجيز، ص: 44.

(22) — ربما كانت هذه المحمة التي استهدفت مدينة سلا، ردا على مساندة أهلها لحمد بن هود الهادي. أنظر B. Meakin, the Moorish Empire, New-york, 1899, p. 88 s.

(23) — لاني برونسال، وثائق، ن.م.، ص: 106، 199، 205 - 206، ومقالته حول "الرباط" بموسوعة الإسلام ج: 1.

- (24) — مدن المغرب وقبائله ، ج 1 ، ص: 20. — أنظر أيضا ميكن ، ن.م.ص: 61.
- (25) — الإتحاف الوجيز ، ص: 44.
- (26) — يكسي هذا المظهر أهمية بالغة لدى السلاويين إلى اليوم. فقد قدم في أحد الأصدقاء، وهو من عائلة كبيرة بالمدينة، ما كتبه أبوه محمد عواد، الملقب بـ "القطب"، في يوميته، عند مطلع هذا القرن: "رأيت كتابا يقول أن الرجل المدفون بالمسجد هو أبو محمد عبد الحليم المرابط الضماد، وأنه توفي عام 990هـ / 1193م". ويشير إليه ابن علي ، في ترجمته للرجال الأفاضل، تحت اسم "المرسي"، نسبة إلى مدينة مرسسيه الإسبانية، ويقول عن عهائه أنه كان يرى الرسول مناما ويعلم بالموت لبعض الناس... — الإتحاف الوجيز ، ص: 77.
- (27) — ذكره صاحب الإتحاف الوجيز ، ص: 19.
- (28) — استعمل هنا كلمة "Saint" بمعزل عن المفهوم المسيحي. وأشهر ما إلى لفظين عربيين منفصلين: (1) "السيد" جمع "سادات"، أو "سيدي" بالدارجة، الذي يتبعه الاسم. وهو يرمز إلى النسب الشريف (2) — الولي، جمع أولياء. وهو لفظ يجيل إلى التقرب من الله عبر قوة الاعتقاد الديني. والجدير بالذكر أن دلالتهما تتضمنان فكرة القوة أو السلطة. لكنها سلطة روحية تكمن في فاعلية البركة، أي القدرة على منح البركة للآخر. وفي الاستعمال العامي ، سواء تعلق الأمر بالتوجه إلى الشخص أو بالإحالة إليه، غالبا ما ينعت لفظ "سيدي" كل أصناف الأولياء. في حين تظل كلمة "مولاي" لصيقة بالمنحدرين من آل البيت. غير أن جل الأموات التي تحظى قبورهم بالتوقير يحال إليهم بلفظ "سيدي" مهما كان نسبهم ويعرف بالتالي القرب "السيد". والملاحظ، تختلف معاني هذه الكلمات باختلاف شرائح المجتمع في المغرب كما في الخارج بحسب تباين ظروف إشارتها .
- للمزيد من المعطيات حول هذه المفاهيم في إطارها المغربي ، أنظر :
- E. Westermark , *Ritual and Belief in Morocco*, London, 1926 , 2 vol., G.E. Von Grunebaum, *Medieval Islam : A Study in Cultural Orientation*, Chicago, 1946, pp. 138 – 139.
- (29) — "ابن العباس". ويسميه ابن علي "أبو العباس". وقد جرت العادة في الدارجة المغربية استعمال لفظ بـل عوض ابن، وبول عوض أبو.
- (30) — مدن المغرب وقبائله ، ج 1 ، ص: 221 ، التادلي ، التشوف إلى رجال التصوف، الرباط 1958 ، ص: 144-145 ، الإتحاف الوجيز ، ص: 75. يرى ابن علي أن المسجد الذي يحمل اسم العباس بـسلا قد يكون في الأصل، كما يدعي الناس، مدرسة قرآنية، كان قد درس فيها الولي.
- (31) — يتعلق الأمر "بالبديل"، جمع "أبدال" أو "بدلاء"، على النحو المتعارف عليه لدى الصوفية. أنظر: *Archives Marocaines*, vol. XIX, 1913 , p. 237.
- (32) — مدن المغرب وقبائله ، ج 1 ، ص: 221 ، التشوف ، ص: 145-144 ، الإتحاف الوجيز ، ص: 75.

- (33) — للمزيد من التفاصيل حول الجماذبية الدينية التي مارستها سلا إزاء أحوازها ، أنظر : بواون ، ن.م. . . —
 وبخصوص موسم سيدي موسى ، راجع ، الأرشيفات المغربية ، ج 3 - 1905 ، ص: 322 وما تلاهه ، وج
 8 ، 1906 ، ص: 149 - 150
- (34) — الإدريسي، المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس ، نشر دوزي وجوجي ، طبعة
 ليدن ، 1866 ، ص: 72-73
- (35) — يرى ديلفي ، استنادا إلى المخلفات الأثرية ، أن سلا كانت خلال هذه الفترة مركزا هاما لصناعة
 الخزف:
- A. Delphu, « Notes sur quelques vestiges de céramiques recueillis à Salé » ; in *Hesperis*,
 1955, pp. 129 – 152.
- 36) – Cf. Kruger, « Early Genoese Trade with Atlantic Morocco » , in *Medievalia et
 Humanistica*, III , 1945, pp. 7 ff.

الفصل الثالث

العصر الذهبي

المريونيون (1216 - 1465)

شهدت مدينتا الرباط وسلا حوادث دامية قبل استقرار الحكم المريني بهما عام 1260. فمع انهزام الموحيدين، دخلت الرباط، التي كانت قد تضررت كثيرا من جراء المعارك، مرحلة من النسيان لمدة تتأهز أربعة قرون ونصف. ثم إن شألة التي أصابها الإهمال منذ صارت في عهد الدولة المرينية "حرما" ومقبرة موقرة لسلطينها(37). أما سلا، فقد تعرضت لهجمة من طرف نصارى إسبانيا سنة 1260، إبان بداية حكم بني مرين. وهي الهجمة الأولى والأخيرة من نوعها التي عرفتها المدينة إلى حدود عام 1912. فقد كان الحاكم المريني منهمكا في صراعاته ضد عمه، السلطان في وقت استغل فيه الإسبان تعاقدهم التجاري مع الحاكم المتمرد، وكثر عددهم بمرسى المدينة، هكذا، قاموا بأمر من الملك الفونسو في يوم عيد الفطر من سنة 1260 والساويون محتفلون بالعيد، بعملية إنزال بالمدينة وهاجموها بقوة. استمر ذلك 14 يوما، فأحرقوا ونهبوا وقتلوا العديد من الناس وأسروا خلقا كثيرا. فكان رد فعل السلطان أبو يوسف أن قصد المدينة ورفع الحصار القشتالي عنها، ثم سعى، بواسطة بعثة أرسلها إلى إشبيلية، في فداء نحو ثلاثة آلاف أسير بما فيهم قاضي سلا(38).

تطور المدينة : العمارة والتجارة.

عندما استرجع السلطان المدينة كان أول أعماله بناء السور المقابل للوادي. حقا أن الحاكم الموحيدي، الناصر، كان قد أصلح السورين الشمالي والشرقي في بداية القرن الثالث عشر لكن ظلت الجهة الجنوبية غير محصنة. لقد مثلت الهجمة الإسبانية لسنة 1260 أول تدخل أجنبي في أرض المغرب منذ مجيء الإسلام. من ثم كان على البلاد ومراسيها، وخصوصا مرسى

سلا، أن تترك المخاطر الواردة من الخارج وتستفيد في نفس الوقت من علاقاتها معه.

بعد هذا الحادث بقليل، شيد السلطان المريني أبو يوسف "دار الصناعة". وهي ترسانة بحرية توجد بالزاوية الجنوبية الشرقية للمدينة، في الموقع الحالي للحى اليهودي، المعروف بالملاح. ويمثل باب لمريسة صرحا عظيما لهذه المنشأة، يشهد على بهاء المدينة وعبقريته مهندسه الإشبيلي، ابن الحاج. كانت هذه الترسانة بمثابة حوض مائي متصل بالنهر بواسطة قناتين تمران تحت الباب. هنا بُنيت خلال القرنين 13 و 14 السفن التي وجهت للهجوم على سواحل إسبانيا.

وعلى الرغم من هذه المناوشات البحرية بين المسلمين والنصارى، استمرت العلاقات التجارية مع أوروبا عبر البحر وتطورت. فقد كان للتجارة أثر بليغ على الحياة الاقتصادية في سلا، منذ أواسط القرن 12 على الأقل، وتحديدًا بفضل الذهب الذي كانت تجلبه إليها القوافل من السودان. تمت غالبية الرواج مع تجار الجمهوريات الإيطالية، وبخاصة الجنويين. فقد كانوا يشترون من أسواق المدينة الذهب والجلود والشمع والعسل ويبيعون في المقابل سلع عديدة، في طليعتها النحاس. أما القوافل الصحراوية فكانت تقتني المواد الأجنبية المعروضة في أسواق سلا وتذهب بها إلى باقي شمال إفريقيا. هذه المواد الواردة من إيطاليا وكاتالونيا وراغونيا عبر سفن إشبيلية وفالنسيا وبرشلونة، هي: زيوت الزعفران والأقمشة الملونة والكتان الإيطالي والحريير والخشب المصنع والقصدير والذهب والفضة في شكل قطع صغيرة وسبائك، وأيضا الأسلحة والمجوهرات والأحجار الكريمة. أما في اتجاه أوروبا فقد صدر ميناء سلا

الكتان والنيلة والقطن والحبوب والفواكه الجافة ومواد أخرى مثل الحلفا والقرمز ومسحوق الدباغة. لقد وفرت الرسوم الجمركية المفروضة على الرواج التجاري قسطا هاما من مداخيل الدولة المرينية(39).

ازدهار الثقافة :

ينبع التاريخ الثقافي للمغرب، كما يحتفظ به المؤرخون من حياة فقهاء الكبار والمعالم المشيدة لاقتفاء آثارهم. لقد حظيت سلا بوجود علماء ومنتشات على السواء. أفخمها المدرسة العظمى التي بنيت في أوج بني مرين سنة 1340، إيان حكم السلطان أبي الحسن(40). هذه المدرسة أو "لمدرسة"، كما يسميها المغاربة، هي عبارة عن ماوى للطلبة الواردين من خارج المدينة. يقيمون فيها ويأكلون. أما دروسهم فيأخذونها في المسجد المجاور. وتقع أهم مدرسة بسلا بحومة الطالعة، عند قدم الجامع الكبير، على يسار مدخله الرئيسي، في موقع كان يشغله، وفق ما يقال، قصر بني العشرة. تتكون هذه المؤسسة من فناء مستطيل مفتوح، قياسه 24 قدم طولاً و 12 عرضاً، يتوسطه حوض من رخام وتحيط به أربعة أروقة تعلوها غرف صغيرة للطلبة، من طابقتين. وينفتح أحد هذه الأروقة على الفناء، وهو مسجد للصلاة به محراب وتعلوه قبة. وقد رصعت هذه المدرسة بزخارف قرمدية ونقوش على الجبس والرخام والخشب في غاية البهاء(41). عند مدخل المدرسة، على اليسار، تظهر أشعار منقوشة على الجبس، تقول:

لعمري لقد مارسته شتى المجالس ومازجتني الأفاق جل المدارس
وحدثت من حمص وبغداد وانتمت إلى مسمعي أنباء كل ممارس

وإنبأني الرهبان من كل بلدة من المغرب الأقصى إلى أرض فارس
 فما لأعظم عيني، ولا شوق مسمعي. هكذا الطي أزرته بكل منافس(42)
 مارست المدرسة نشاطها تحت رعاية إدارة الأوقاف
 بواسطة المداخل الواردة من الأملاك المحبسة عليها، والتي
 توجد داخل المدينة وخارجها. لقد ازدهرت المدرسة إبان العهد
 المريني، لكن، اعترأها الخلل بعد ذلك. في نهاية القرن 18 قام
 قاضي سلا، محمد بن حجي القاسم زنيبر، بترميمها واستئنفت
 الإصلاحات سنة 1864 على يد ناظر الأحباس محمد بن عبد
 الهادي زنيبر، باقتراح من أحد كتابه، المؤرخ أحمد بن خالد
 الناصري. وأخيرا عملت مصلحة الفنون الجميلة التابعة لإدارة
 الحماية الفرنسية بتصنيف المدرسة ضمن المآثر الوطنية
 وواصلت أشغال ترميمها.

بفضل رعاية أبي الحسن المريني، تزودت المدرسة
 والجامع الأعظم بالماء الضروري للوضوء من عيون البركة
 شرق المدينة على مسافة أميال. يتعلق الأمر بقناة عالية هائلة
 تعرف باسم الأقواس، نسبة إلى أقواسها الثلاثة، كانت قد بنيت
 لهذا الغرض على نحو ميل تقريبا من جهة الشمال. كانت القناة
 بمثابة سور ثان يحيط ببساتين المدينة ويحميها هي والطريق
 الرئيسية الرابطة بين سلا وطنجة، التي لا تزال إلى اليوم تمر
 تحت أقواسها(43).

وتشهد بقايا مآثر أخرى على عظمة بني مرين وأهمية سلا
 كمركز للمعرفة والتقوى. في طليعتها المدرسة العجيبة التي
 تعرف أيضا بالبوعدانية، نسبة إلى بانيتها، السلطان أبو عنان، أو
 بالمارستان. وهي في الوقت ذاته مستشفى صغير ومدرسة
 للطب، أقيمت في الفندق الذي كان يقطنه أبو موسى، قبل قرنين

من الحكم المريني. وهو المحل الذي تشغله اليوم دار القلضي. وتظهر صورة كنيية التقطت سنة 1927 هيكل الباب المتهمم للفندق بزخارفه وفسيفسائه ونقوش أخشابه(44). إنه الصرح الذي أيقظ أفكار ابن علي عند نهاية القرن التاسع عشر حول التدهور الفكري للمغرب ومسبباته : " كان سوق الطب كسائر المعارف والعلوم رائجا بأقطار المغرب لاعتناء الملوك به. ولما تقهقر حال الدولة المرينية وضعف حال ملوكها أخيرا، بطل العطاء وانقطع الإمداد فهجر المارستان لذلك، ولاسيما كونه في حارة اليهود [أي باب احساين التي شكلت الحارة الأصلية لليهود سلا] ... فأشرف بناؤه على الخراب... وأعيد لحالته الأولى كما كان فندقا وبقي بابه شاهدا لحسن بنائه"(45).

ونجد خارج أسوار سلا، في اتجاه الشرق، على بعد 600 متر تقريبا، على الطريق المؤدية لمكناس، بقايا مآثرة أخرى تعود إلى عهد أبي عنان. إنها زاوية النساك. شكلت هذه الزاوية التي بنيت عام 1356 داخل مقبرة سيدي بلعباس، ملاذا للمتعبدين من الفقراء والسائلين والمنزوين والزوار والغرباء. وتشير المصادر أيضا إلى أن الزاوية كانت تقع بقريية تدعى صبرة كانت تسكنها جماعة من الأشراف(46).

لقد ارتبطت سمعة سلا، بكل تأكيد، بالعرفان والصلاح. يظهر ذلك بجلاء، في المقام الأول، من خلال شخصية الأديب والسياسي لسان الدين بن الخطيب الذي هجر غرناطة بعد أن شغل بها منصب وزير، واستقر بسلا لمدة ثلاث سنوات ، 1361 -1358. فقد خلف شهادة ثمينة في حق سلا. يقول عنها إنها كانت جامعة بين البداوة والحضارة. فمزارعها تنتج القطن والكتان والعنب، وضواحيها تتوفر على مراعي جيدة وحقول

خصبة، وأسواقها تمتلئ بأطيب الشهوات، بل وحتى برقيق الحبشة، ومدارسها ومارستاناتها وزواياها وأضرحتها تجلب قاصدي المعرفة والتأمل والعزلة (47). ومن أشهر الأبيات الشعرية التي نظمها ابن الخطيب حول المدينة، تلك التي تتصل بمعنى الأصل العربي لكلمة سلا :

ولا نسخته تحريبي بقلبي سلوة فلما سرى فيه نسيه سلا . سلا(48).

1 - ابن عاشر الطيب : الصوفية في سلا :

ثمة أشعار أخرى يرددها أهل سلا :

سلا حل قلبه تحير قلبي ما سلا أيسلو بفاس والأحبة بني سلا

بما خيموا والقلب خيم محضهم فاجروا حمومي مرسلا ومسللا

نظم هذه الأشعار المعبرة عن حس الأهل، عن الارتباط بسلا وناسها، الحاج أحمد بن محمد بن عمر بن عاشر الأنصاري، المعروف لدى عامة الناس بسيدي ابن عاشر "الطيب"، الولي الشهير، دفن سلا، وسلطان صلاحاتها، حسب ما يعتبره البعض من باب الخطأ. ولد ابن عاشر في شمينه من بلاد الأندلس في أواخر القرن 13 تقريبا. عاش ودرس في مدن عديدة وحج إلى مكة قبل استقراره بسلا عام 1356.

كانت سلا، على غرار فاس، قبلة للصوفية خلال القرن الرابع عشر. لقد استقر ابن عاشر أول الأمر بشالة، مقبرة المرينيين، حيث توجد زاوية الحاج عبد الله الياهوري، وعلم القرآن هناك. ولما توفي شيخه انتقل للعيش بسلا في زاوية أبي زكرياء الكائنة بقرب الجامع الأعظم، حيث تعبد وكسب رزقه من استساخ كتب الحديث. واشترى فيما بعد منزلا بإزاء باب معلقة وبستانا صغيرا خارج باب سبتة. هنالك التزم الولي خلوة

تامة. لكن سرعان ما بدأ الأتباع يردون من مدن أخرى للتقرب منه، منهم

ابن عباد الرندي الذي وجد بسلا راحة بدنية وروحية لم يحصل عليها بفاس لكثرة الفتن بها(49).

هكذا اتسعت شهرة ابن عاشر بسرعة. فبدأت ترد على المدينة جماعات من الزوار من مكناس وفاس للتبرك بالولي والتعبير له، حسب إحدى شهادات معاصريه، عن اعترافهم بـ "تفوقه الروحي اليقين" (50). وتروي النصوص أن ابن عاشر كان شديد الاشمئزاز من تملق قاصديه. لقد ذكر ابن الخطيب مدى صعوبة لقاء الولي بسبب كثافة هيئته. فقد رآه ملازماً للقبور في الخلاء، رث الهيئة، مطرق اللحظ، كثير الصمت شديد العزلة(51). وبالفعل، ترسم أقوال أتباعه صورة ولي مهيب، كثير الخشية، لاجرؤ المرء على التحدث إليه إلا إذا باهر هو إلى ذلك. لكنه كان "ولي الله" في نظر الناس، عارفاً بأمور الدين دون زيادة أو نقصان، وهي من الشروط البينة لشريعة الإسلام(52).

وتعكس أخبار التاريخ حول فشل أبي عنان في زيارة ابن عاشر، أهمية هذه الخصال الروحية. فقد وقف السلطان ببابه مراراً لكن الولي أصر على رفضه للقاء به. غير أنه قبل في الأخير أن يرسل إليه كلمة ذكره فيها بكل بساطة بواجباته الدينية. فاكتفى السلطان بذلك وطلب منه فقط أن يدعو له بالنصر في جهاده ضد نصارى إسبانيا وبالحج إلى بيت الله الحرام(53).

تختلط في هذه التراجم الوقائع بالأساطير. وما حياة ابن عاشر إلا نموذجاً لذلك، حيث أن الأمور التي تسردها كتب المناقب المغربية، حتى وإن كانت بقلم المعاصرين للأولياء

تنحو إلى إضفاء المثالية على حياة هؤلاء. ومع ذلك تمنحنا نظرة عميقة حول القيم الاجتماعية، الحقيقية أو المزعومة وأفعال الناس وطباعهم (54). لكن، يبقى تفسير المكاشفات ضرورياً.

2 — الأولياء والتصوف :

يشير التعبير المجازي للقرن 14، بصدد كرامات ابن عاشر مثل إزهار الورد في الغصن الجاف وسيلان العسل من الصخر إلى الاعتقاد بحدوث عجائب نتيجة التبرك بقبر الولي والتسك بضريحه. يستلزم الحديث عن الكرامات التمييز بين تصور الخاصة من سكان الحاضرة، من جهة وعامة الناس، من جهة ثانية، الحضر منهم والبدو، بما فيهم النساء. فقد ينصت الفقيه إلى ما يروى حول هذه الكرامات فيقبلها دون جدال أو ينفىها. لكنه لا يبتكر مثل هذه الروايات أو يرددها أو يرفضها علانية. فهو يؤمن بالقوة الإلهية اللامتناهية وقدرتها على كل شيء. هكذا يسرد ابن علي حياة ابن عاشر وفق ما تقدمه النصوص المكتوبة، ويضيف فقط، دون زيادة، بأن كرامات هذا الولي وعجائبه لا زالت تحظى بمكانة لدى أهل سلا (55).

إنها كرامات وعجائب لازالت حية إلى اليوم في المتخيل الجماعي. ويبدو أن شهرة ابن عاشر كطبيب تعود في الأصل إلى رواية حول أحد صلحاء الرباط، سيدي التركي، ومفادها أن تركيا جوهرياً - وفي رواية أخرى، صياد مرجان، كان يعاني في القرن 18 من انحصار لؤلؤة بداخل أنفه، وأنه زار أشهر الأطباء دون جدوى، وفي الأخير حج إلى قبر سيدي ابن عاشور. فلما وصل إلى المقبرة ووقف على تواضع قبره استخف به وقال: "كيف لي أن أثق في قبر مهجور وقد فشل في علاجي أطباء

كبار". فما أن فاه بهذه الكلمات حتى أخذته عطسة، فسوحت أنفه من الحجر المذكور. فبنى له ضريحاً. بعد ذلك بقليل، ظهر له الولي في منامه ودعاه إلى التمسك. هكذا أنهى حياته ولياً صالحاً وصار قبره بالرباط مزاراً يتبرك بها بالخصوص البحارة والصيادون(56).

منذ القرن 17 أصبح قبر سيدي ابن عاشر قبلة للزوار. أما ضريحه، بقبته العظيمة وجناحيه، فقد بناه السلطان مولاي عبد الله بن إسماعيل سنة 1733، في الركن الأيسر من المقبرة التي تحمل اسم الولي. وقد عرف الضريح سلسلة من الإصلاحات بعد هذا التاريخ. سنة 1844 جددت القبة بأمر من السلطان مولاي عبد الرحمان، ثم وسعت أجنحته ببناء بيوتات إضافية على نفقة أحباس سلا. واستمرت هذه الترميمات في نهاية القرن 19 بفضل هبات بعض أعيان المدينة، أمثال الأمين عبد الهادي زنيبر والتاجر الحاج أحمد الصابونجي. وازدادت زيارة الضريح عندما أصبح به مارستاناً لعلاج المرضى والمجانين. هكذا في الوقت الذي كانت فيه بيوتاته تأوي المرضى، كان بهوه الرئيسي يستقبل عدداً كثيراً من الزوار يومياً من داخل المدينة وخارجها(57). ومن جهة أخرى احتضن الضريح موسماً سنوياً لترتيل الأذكار وتتظيم أهازيج "الحضرة"، في اليوم التاسع من عيد الأضحى. أما رعاة الضريح فهم أولاد اعمار الذين يدعون الانتساب إلى الولي أو إلى أحد أتباعه. وتعترف السلطة بحقوقهم في الهدايا التي يأتي بها الزوار. فكل رجل متزوج له نوبته في رعاية الضريح والاستفادة من الزيارات. وتعتبر عائلة أولاد اعمار من أعرق عائلات سلا وأشدّها احتراماً. ويعتقد بعضهم امتلاك بركة الولي. ويتصاهر عدد كبير منهم مع الحسونيين، حفدة أحد

أتباع سيدي عبد الله بن حسون، "سلطان سلا".
تكتسي كرامات سيدي بن عاشر صبغة أسطورية. فبغض
النظر عن شفائه لذوي العمى والمقعدين والمجانين، يعتقد الناس
أن بركته تهدأ أمواج البحر. لذلك كان قراصنة سلا يدخلون
المرسى بسفنهم وغنائمهم وأسراهم وهم في ثقة من أمرهم. وهو
نفس الاعتقاد الذي فُسِّرَ به عجز البحرية الفرنسية سنة 1844 في
الاقتراب من سلا بسبب هيجان البحر، بعدما كانت قد قصفت
طنجة والصويرة.

لقد تحولت الشخصية التاريخية لسيدي بن عاشر من
أسلوب صوفي، على النحو الذي نلمسه في القرن الرابع عشر
المريني إلى اعتقاد استشفائي وحمائي خصت به المدينة نفسها
خلال القرون الأربعة الموالية. وهو تحول يعكس بوضوح التغيير
الكبير الذي حصل في المغرب إبان هذه الفترة. فبعد مرور بضع
سنوات على وفاته، سنة 1362، عاد أحد أتباعه إلى سلا فوجدهم
"قفرا"، دون حركة فكرية أو روحية، دون كتب أو مواسم، دون
أصدقاء أو أحبة. فقد تراجعت أوساط الصوفية واطمحلت
الأنشطة الدينية في المدينة (58).

(37) — تتمثل مصادر هذه الفترة ، بصورة أساسية ، في كتاب العير ، ج 4 ، وروض القرطاس لابن أبي زرع ، نشر بومبي ، باريس 1860 . راجع أيضا :

J. Caillé , la ville de Rabat jusqu 'au Protectorat français Paris, 1949 T.I , p. 187s.

38) — B. Baretta, « la toma de Salé en Tiempos de Alphonso El Sabio », in Al-Andalus, VIII, 1943, pp. 89 — 128.

أنظر ما كتبه هنري تيراس حول هذه الدراسة بمجلة هسبريس، 1944، ص: 87-92 .

(39) — أنظر مدن المغرب وقبائله، ج 1، ص: 115 وما تلاها. — يشير عبد الله العسوي في كتابه "الأيديولوجيا العربية المعاصرة" (طبعة باريس، 1967، ص: 78 و ص: 5) إلى أطروحة مرفوعة حول العلاقات التجارية للمغرب ما بين القرن 10 والقرن 15، يبين صاحبها استمرار تدفق كميات هامة من ذهب السودان إلى المغرب حتى آخر القرن 15، حيث يسلك بمراكش ويصدر عبر مدينة سلا في اتجاه موانئ أراغونيا وإيطاليا. وحسب المصادر الجنوبية كانت سلا وآسفي يمثلان أهم الموانئ لتجارة الذهب خلال النصف الأول من القرن 13. أما إيف لاکوست فيؤكد على فقدان المغرب تحكمه في مسالك الذهب والتجارة مع السودان خلال القرن 14. وأما المصادر التي تتوفر عليها نحن فلا تشير إلى تقلب التجارة بين سلا والسودان. حول هذه القضايا، أنظر : آدم، ن.م. ص: 45، ص: 52، لاکوست، ن.م. ص: 108 وما تلاها.

(40) — أنظر لافي بروفانسال، نخب من كتاب المسند الصحيح الحسن في مآثر المولى أبي الحسن، لابن مرزوق هسبريس، 1925، ص 69، ص: 3.

(41) — للمزيد من التفاصيل حول المدرسة مع بيانات وصور ، أنظر :

Ch. Terrasse, Medersas du Maroc, Paris, 1927.

(42) — الإنحاف الوجيز، ص: 89.

(43) — يشير الناصري في هذا الشأن إلى حديث طريف كان قد أجراه مع أحد القناصة بسلا، أكد له أصل هذه القناة. وقد شبه المورخ هذا النظام الهندسي بالحنايا القرطاجية، أنظر الاستقصا، طبعة القاهرة، 1894، ج 2، ص: 86.

(44) — شارل تيراس، ن.م. اللوحة 11.

(45) — الإنحاف الوجيز، ص: 54.

(46) — نفسه، ص 51، مدن المغرب وقبائله، ج 1، ص 213-211 . أنظر أيضا :

J. Meurié, « La Zaouiâ en Noussak, une fondation mérinite aux abords de salé », in Mélange d'histoire et d'archéologie de l'Occident musulman ,II , Hommage à G. Marçais », Alger, 1957, pp. 129 — 146.

(47) يتعلق الأمر هنا بزاوية الشيخ أبي زكريا المخامرة للمسجد الأعظم، التي اشتهرت بمكتبتها . وهي الزاوية التي أصابها الإهمال فصارت عند مطلع القرن تموي روضا ونولا وكتابا قرآنيا. ويقول ابن علي في وصفه لظاهرة

الصلاح التي اشتهرت بها المدينة: "بسلا زوايا كثيرة وأضرحة كبيرة شهيرة لمشايخ عظام وأولياء كرام" (الإتحاق الوجيز، ص53).

(48) — الاستقصا، ج 2، ص: 112 وما تلاها. — حول ترجمة ابن الخطيب وكتابه المتضمنة لمقارنة بين مدينتي سلا ومالقة، راجع العبادي، مشاهدات لسان الدين بن الخطيب في بلاد المغرب والأندلس، الإسكندرية، 1958. فرغم الأبيات الشعرية التي قالها في حق سلا، كان ابن الخطيب يفضل مالقة. لذلك نظم ابن علي، باعتزاز، أرجوزته "إنحاف أشرف الملا"، دفاعا عن المدينة ضد افتراء الكاتب الأندلسي الشهير.
49) - Cf.P. Nwyia, Ibn Abbad de Ronda (1332 – 1390), Beyrouth, 1961, p.62.

(50) — نفسه، ص:56.

(51) — الاستقصا، ج 2، ص: 114 – 115.

(52) — بول نوية، ن.م.، ص: 55 وما تلاها.

(53) — سنناقش فيما بعد الموقف الازدواجي لكبار الأولياء والفقهاء السلاويين إزاء السلطة.

(54) — يرى بول نوية في ذلك نموذجا للشخصية الصوفية.

(55) — الإنحاف الوجيز، ص: 55.

(56) — لا تزال هذه الحكاية متداولة في أوساط سلا حيث جمعت حولها روايات متعددة أثناء البحث، ويوجد

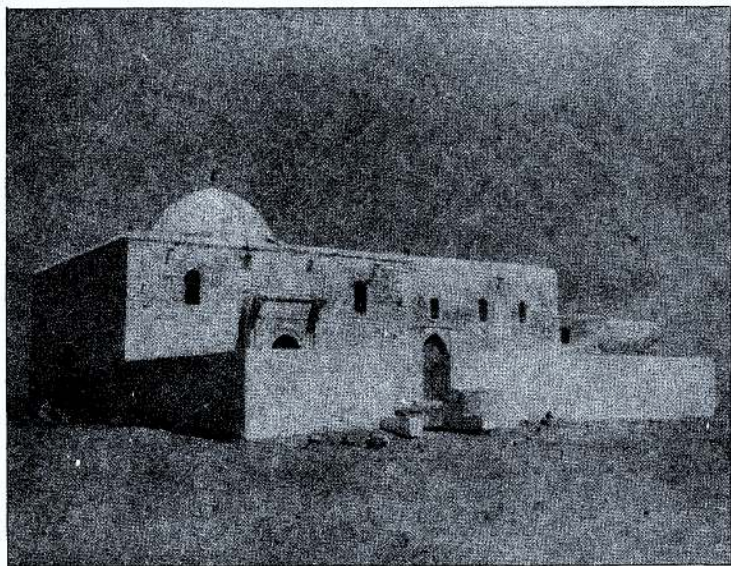
البعض منها في P. Marty, "la zaouia de Sidi ben Achir à salé", in Revue des études islamiques, VII, 1933, pp. 143 – 152.

L. Brunot, la Mer dans les traditions et les industries indigènes à Rabat et Salé, Paris, 1920, p. 55.

(57) — تقول الدكتورة لوجي التي اشتغلت سنين عديدة بالمدينة في أوائل الحماية الفرنسية أنها لم ترقط أناسا على درجة من البوس كما هو الحال لدى بجانين سلا. أنظر :

Legey, Essai de folklore marocain, Paris, 1926, p. 156.

(58) — بول نوية، ن.م.، ص: 70 – 71، 135. — يدخل هذا الجمود ضمن التراجم العام الذي عرفه الغرب الإسلامي والذي عاشه ابن خلدون وفسره في "المقدمة". وقد عرض إيف لاکوست في دراسته السابقة الذكر، تحليلا إيجابيا للعوامل الاقتصادية التي تحكمت في هذا الانحياز.



ضريح سيدي أحمد بن عاشر

الفصل الرابع

أصالة سلا

القرن 15 - القرن 18

وخاء المرسى :

ظل مرسى سلا، في أواخر الحكم المريني وخلال عهد الوطاسيين ، أي من أواسط القرن 14 إلى أواسط القرن 16، أهم مركز تجاري ساحلي في المغرب بالنسبة لتجار بلدان البحر الأبيض المتوسط وفلامانيا وإنجلترا. فقد اشتهر أهل سلا بالتجارة. كانوا يبيعون التوابل والقطن والأقمشة والعاج والشمع والعسل والجلود والزرابي ويشترون المنتجات المصنعة من جينوة وكاطالونيا والبندقية، والأثوبة من إنجلترا، والأقمشة الصوفية من فلامانيا والسكر من إسبانيا(59). ويشير تقرير مثير بقلم أحد التجار الفرنسيين، إلى سفارة بعثها فرانسوا الأول سنة 1532 إلى السلطان بفاس ليلتمس منه فتح المراسي المغربية في وجه التجارة الفرنسية. وهكذا أخذت سفن مدن جنوب فرنسا مثل روسيون وبايون تتاجر بصفة منتظمة مع مدينة سلا(60).

ويقدم الحسن الوزان وصفا قيما حول سلا في القرن السادس عشر : "بيوتات سلا مبنية على طريقة القدماء، مزينة كثيرا بالفسيفساء وأعمدة الرخام، ومساجدها كلها في منتهى الجمال والزخرفة. وتطبق هذه الأوصاف أيضا على الدكاكين الواقعة تحت أروقة كبيرة جميلة. وعندما يمر المرء أمام عدة دكاكين يجد قوسا مبنيا على ما يقال ليفصل بين حرفة وأخرى.

استنتج من ذلك أن سلا تملك من الترف والبذخ ما يضيفي عليها طابع مدينة عريقة في الحضارة، بالإضافة إلى أن ميناءها الجيد مهبط التجار المسيحيين من مختلف الجنسيات [...] يستعمل كميناء لكل مملكة فاس.

وعلى الرغم من سرعة استرجاع سلا [من هجمة قشتالة عام 1260] فإنها بقيت منذئذ أقل سكانا وأهمية. وتوجد في المدينة

كلها، لاسيما قرب السور المحيط بها، نور عديدة خالية تحتوي على أعمدة جميلة جدا ونوافذ من الرخام مختلفة الألوان، لكن الأهالي اليوم لا يقدرونها حق قدرها.

[وفيها] الكثير من البساتين وكذلك الحقول التي تنتج كمية عظيمة من القطن. ومعظم سكان المدينة حائكون [...] وتصنع كذلك بسلا كمية وافرة من المشط تباع في جميع مدن مملكة فاس، إذ توجد بجوار المدينة غابة عامرة بأشجار البقس وغيرها من الأنواع الأخرى العديدة الصالحة لهذا العمل.

ويعيش الناس الآن في سلا عيشة طيبة جدا، إذ يوجد فيها حاكم وقاض وعدد من الموظفين الآخرين أمثال موظفي الجمارك وضرائب المعاملات التجارية، لأن عددا كثيرا من التجار الجنوبيين يأتون إليها ويعقدون فيها صفقات هامة، ويلقون من الملك عناية خاصة لأن تجارتهم تحقق له أرباحا ضخمة" (61).
تظهر سلا من خلال هذا الوصف كمدينة منظمة ونشيطة وثرية ذات مؤهلات تجارية تفوق بكثير مزاياها الثقافية والروحية والجمالية. ومع ذلك، عرفت سلا في القرن 16، على غرار باقي نواحي المغرب، نفسا دينيا وإلهاما جديدين.

الصوفية : سيدي عبد الله بن مسون (ت 1604)

الولي - القطب .

يرجع الفضل في نشأة العديد من المدن بشمال إفريقيا في القرنين 15 و 16 إلى شخصيات دينية. فقد اقترن انتشار الصوفية في هذه المرحلة بالجهاد ضد الغزو الأوربي بالسواحل وانبعاث القوى الحيوية والقيم القروية تحت راية الإسلام (62). فكيف كانت إذا تجربة سلا خلال هذه الفترة ؟

ولد سيدي عبد الله بن حسون في بلدة سلاس، شمال فاس، في مطلع القرن 16. درس في فاس على يد شيوخ كبار كالعلامة عبد الواحد الونشريسي.. فعاد إلى سلاس وهو فقيه كبير، لكن الصراعات القبلية جعلته يغادر موطنه ويلتجأ إلى سلا. ويقال أنه بمجرد استقراره هناك جاءه وفد من سلاس يلتمس منه العودة إلى بلدته. فسار بهم إلى شاطئ البحر وملاً من مائه كأساً وسألهم عن السر في هيجان ماء البحر وركوض الماء بالكأس. فأجابوه : لأن ماء الكأس افترق عن البحر، فقال: كذلك الشأن بالنسبة لي، فقد وجدت في الانتقال الراحة والهناء ولا أريد الرجوع إلى الفتن. هكذا استمرت سلا في جذب الراغبين في السكنية.

لا تذكر المصادر المكتوبة إلا القليل عن حياة الولي. فما نعرفه هو أنه كان متمكناً من مختصر خليل وخطيباً بالجامع الأعظم، وأنه كان يقضي به أوقاتاً كثيرة لكتب الحروز لزواره من أهل المدينة والقرى. ويبدو أن هذه الزيارات قد أخذت مشهداً مؤثراً. فقد حدث أن زاره أحد رجال العلم فرأاه جالسا ماداً رجله، والناس من أهل البادية يتساقطون عليه لتقبيل يديه وقدميه. فاستكر الرجل هذا المشهد. فرد عليه سيدي عبد الله : " رجل قيل له من مس لحمك لم تمسه النار، أفيبخل بلحمه على المسلمين" (63).

وتظهر أسطورة أخرى حول سيدي عبد الله تفوقه على صلحاء المدينة. فعند قدومه إلى سلا، خرج كل أصحاب الطرق الدينية للقائه والتحق بهم عامة الناس، الصغار والكبار، العبيد والأحرار، النساء والرجال. ثم تجمع كل الأولياء، الأموات منهم

والأحياء، جنب هذا الحشد، وفي طبيعتهم سيدي يدر الذي كان يعتبر آنذاك "سلطان صلحاء سلا". فلما جاء سيدي عبد الله ونزل من فرسه، تقدم إليه سيدي يدر بقدرح من الحليب. لكن، عوض أن يتسلمه منه أخرج وردة من قماشه ووضعها في القدرح. فلما سئل عن دلالة الوردة، أجاب بسؤال حول دلالة الحليب. فرد الصلحاء أن القدرح يرمز إلى المدينة والحليب إلى صلحائها. فقال سيدي عبد الله أن رمي الوردة في الحليب يعني أن الله جعله وردة بينهم. من ثم صار سيدي عبد الله سلطان الأولياء. إثر ذلك تحول الصلحاء إلى طيور، إكراما له. وكانت تلاحقه نخلة أينما حل وارتحل، فلما دخل المدينة وذهب إلى المكان الذي بنى بمقربة منه ضريحه فيما بعد، انغرست الشجرة لوحدها في الأرض. عقب ذلك توالى زيارته من طرف أعيان المدينة، بل وحتى النساء، حيث كان يتحول أمامهن في هيئة أنثى.

تعكس هذه الأسطورة بالتحديد وجهين هاميين: أولا، أصبح سيدي عبد الله "سلطان لبلاد" في وقت متأخر نسبيا من تاريخ المدينة، ثانيا، أصبحت مناقبه مندمجة، مع بعض التلاحق في نسق معتقدات الناس. لقد كرم الولي أهل المدينة وكرمت المدينة الولي. إنه تفسير يشير إلى صحة تحليل جاك بيرك، حول انتشار الصوفية كإحياء للقدرات والقيم المحلية تحت راية الإسلام، على المجال الحضري في المغرب كما على البادية. وإذا كانت البيوغرافية الأسطورية لسيدي عبد الله توافق نمط "انتشار الصوفية" خلال هذه الفترة فذلك يعود إلى الصورة التي ابتكرها أهل سلا. فقد كانت الطريقة التي كرموا بها الولي من صنعهم الخاص: رجل فقيه متصوف يقبل بركة ربه بتواضع كبير، ولي له القدرة، على غرار سابقه، ليقنع حتى الأولياء بأسلوبهم

وليخلق لنفسه منزلة رفيعة بينهم، ولي يقبله أعيان المدينة وفقهاؤها، بل وتزوره حتى نساؤهم لما رأوا فيه من حشمة وتواضع.

من مميزات المدينة أنها كانت تطلب من صلحائها كل شيء. فقد كان أهلها مركبا وكانت المطالب بالتالي متنوعة. لقد حظي سيدي عبد الله وأخلافه الذين لازال البعض منهم يكتب الحروز، بسند شعبي. وإلى اليوم يكرم الناس ضريحه الرائع بكثافة، ويخلدون ذاكرته في موسم جماعي يوافق عشية عيد المولد النبوي (64)

ونلمس أهمية سيدي عبد الله بن حسون ومدى تجدر شخصيته في الصورة المثالية للمعرفة والقيم الدينية من خلال النظم البيوغرافي الذي تركه لنا ابن علي:

| | |
|----------------------------|------------------------------|
| ومنهم القطب الجليل الأخضر | سيدنا عبد الله الأشهر |
| وهو ابن حسون الجليل القدر | وبسلاس ينتمي لغنر |
| أجل من يحضر في السلاج | وأخبار الرجال في الفلاج |
| شيخ العلا وعين أعيان الملا | ومحمدة الفضل بأرضنا سلا |
| وصفه النشر حذرة العجال | بالعالم الكبير والزرع المؤال |
| وبالولي الصالح المعتبر | أخ تفضله وعلمه أخصر |
| أخذ عن أعظم الأشياخ | في عصر الأخبار الرساخ |
| وكان قائما على متن خليل | حفظا وفهما وله حال جليل |
| يخبر بالغيب ويشفي المرضى | بكتبه فهو الولي الأرضي |
| وحاله أخرب مما يحضر | وسره أبصر مما ينشر |
| له تلاميذ أجلا فضلا | قد خرجوا من الشيوخ نبلا |
| وكتلمات العربيت من فقه | إلى الرسوخ والجلال ينتمي |

وبالمصايب والمبائت الواضحة
هناك تبقى للبلاء ماطلة
تلميذ الأرضي أبا الأياحي
فضله بين الأنام فاشي
طول حياته لما به حبي
بفضله وصديه موصوفا
لعماء الفقه مع الثالث عشر مرتضى

أما الكرامة فهو ما أصفه (65)

لا تشير هذه الأشعار بالقدر الكافي إلى انبعاث القوى الحيوية
والقيم القروية التي عبر عنها صلحاء القرنين 15 و 16. ورغم
أن مثل هذه القيم تظهر في بيوغرافية ابن حسون فإن تقاليد
المدينة صاغت هذه الصور ضمن قالب إسلامي مألوف.

العياشي والدفاع عن التراب المغربي:

شهد الجزء الغربي من البحر الأبيض المتوسط تحولا هاما
في موازين القوى بين شماله وجنوبه خلال القرنين 15 و 16. فقد
جسد سقوط إمارة غرناطة الإسلامية سنة 1492 نهاية لأزيد من
سبعة قرون من توسع المغاربة واستيطانهم في شبه الجزيرة
الإيبيرية. ففي ظرف ربع قرن سقطت معظم المدن المهمة
الواقعة على الساحل الأطلسي المغربي في يد
الإمبراطوريتين الناشئتين: إسبانيا والبرتغال. في هذا
السياق، شكلت سلا استثناء (66).

من بين الوافدين على سلا خلال هذه الفترة، محمد
العياشي، أحد الرموز الكبرى لتاريخ المغرب (67). ينتمي هذا

وكان يوتى بالثياب الفاخرة
فيطرحها في مكان مصلية
وهو الذي أنفض للجناد
محمد الميامد العياشي
فكان زربا لبلاد المغرب
وله يزل شيخ العلي معروفا
أناض عن تسعين ثم قضى
وخيره لأن تدياق عرفه

الرجل إلى قبيلة بني مالك، من العرب الهلالية المقيمة ببلاد الغرب. استقر بالمدينة عند أواخر القرن 16 وكرس حياته للدراسة والتصوف تحت إمرة شيخه عبد الله بن حسون، فامتاز بالورع وقلة الكلام ومداومة الصيام وتلاوة القرآن . وتذكر النصوص أن الشيخ أركبه ذات يوم فرسا كانت قد أهدته إياه إحدى القبائل الزائرة، وأمره بالتخلي عن التلمذة حتى يتعرف بإذن الله ، على العالم وعظمة خلقه. واستقسمه على الجهاد وباركه وأشار إليه بالخروج إلى ثغر آزموور.

ولم تمر بضع سنين على هذا الأمر حتى تولى العياشي حكم آزموور ودافع على هذه الجهة من المغرب بالتضييق الشديد على الإسبان والبرطقيز، وأصبح بالتالي خصما عنيدا للدولة السعدية. وفي سنة 1614 عاد إلى سلا بعد أن نجا من محاولة اغتيال دبرها له السلطان (68). من تم وإلى غاية وفاته عام 1641 على يد إحدى القبائل العربية بالغرب، حارب العياشي الإيبيريين على طول السواحل الأطلسية والمتوسيطية وصار حاكما مستقلا للمنطقة الواقعة شمال سلا وشرقها (69).

المورسكيون:

في الوقت الذي حول فيه العياشي مدينة سلا إلى ثغر للجهاد، نزح آخر المسلمين المهجرين من إسبانيا واستوطنوا الضفة الأخرى من نهر أبي رقراق، بالقصبة والرباط. والواقع أنه منذ 1492، توافدت على سلا جماعات منعزلة من المسلمين واليهود من إسبانيا. لكن لما طرد أهل الأندلس بكثافة بموجب سلسلة من المراسيم الصادرة عن فيليب الثالث من 1609 إلى 1614، لم يكن بإمكانهم الاستقرار بسلا على الدوام (70). ويقول

ابن علي أن البعض منهم كان قد اکتري بالفعل دورا بالمدينة لكنهم وبسبب سلوكياتهم المتحررة ولباسهم الرومي ولسانهم وتصرفاتهم ، كانوا قد أخذوا بقيم الإسلام ، وبالتالي لم تجز إقامتهم بالمدينة(71).

سنة 1610، أقام الهورناتشيون، القادمون من مدينة هورناتشوس الإسبانية، في الضفة الجنوبية للنهر، وشيدوا قسبة تدعى "قسبة سلا". لقد ظلت هذه الجماعة متجانسة وتميزت بتمسكها القوي بالإسلام ومحافظةها على اللغة العربية وثروتها التي نجحت في نقلها من إسبانيا، كما اشتهرت باللصوية. وما أن استوطنوا هذا المكان حتى شجعوا مهاجرين آخرين للقدوم إلى المغرب والاستقرار بجانبهم في المجال المعروف بـ"مدينة الرباط". هكذا نمت ثلاثة تجمعات سكنية متباينة : سلا والقسبة والرباط، وإن كانت الوثائق الأوربية التي تقدم لنا معلومات كثيرة حول هذه الفترة غالبا ما تشير إليها مجتمعة، أو دون تمييز، تحت تسمية سلا.

حينما التجأ العياشي إلى سلا وافق زعماء المدن الثلاث على حمايته. وحصل بعد ذلك أن قطع "أندلسيو" الرباط علاقاتهم مع السلطة السعدية في مراكش وعينوا حاكما عليهم عن طريق الإقتراع، ليتحمل مسؤولية المجلس مدة محددة من الزمن. هكذا نشأت أول جمهورية على ضفتي أبي رقرق. وسار سكان القسبة على نفس النهج وكونوا جمهورية أخرى حوالي عام 1627. لقد حافظت هاتان الجمهوريتان على علاقات طيبة مع العياشي المتحكم في المنطقة الممتدة من سلا إلى تطوان، واعترفتا بسلطته. لكنهما ظلتا في ذات الوقت متشبهتين

باستقلالهما الداخلي. ويبدو أنهما ساهمتا من الناحية العسكرية في جهاده ضد الغزاة النصارى بالسواحل.

لا نعلم كيف كان التنظيم الداخلي لسلا إبان هذه الفترة. لكن من الواضح أنها لم تكن تعترف بسيادة السلطان السعودي بمراكش، مولاي زيدان (72). فقد بايع أهل سلا والقبائل المجاورة العياشي للدفاع عن المراعي الواقعة في الشمال ضد الإسبان المحتلين للمهدية وللحد من الفوضى التي خلقتها القبائل داخل المدينة وبضواحيها. وهكذا قطع السلاويون ذكر إسم السلطان من خطبة الجمعة و"اجتمعوا على الولي الصالح العلامة المجاهد محمد العياشي السلاوي للجهاد في سبيل الله" (73).

وبعد غزوة ناجحة ضد نصارى المهديّة اكتملت سلطة العياشي. فاستقر بسلا وبنى بها حصنين بالجهة الجنوبية الغربية المقابلة للقصبّة، يتصلان بمنزله الكائن داخل الأسوار في الموقع الذي تشغله حاليا "مدرسة أبناء الأعيان" التي بناها الفرنسيون وذلك عبر نفق يتسلى به اليوم أطفال المدرسة.

الصراعات الداخلية لـ "الجمهوريات الثلاثة"

"من 1627 إلى 1641 عاشت سلا الجديدة (أي الرباط) والقصبّة في حرب مستمرة تقريبا، سواء ضد بعضهما البعض أو ضد سلا القديمة وكان يتدخل الأشراف ولاسيما الولي الصالح العياشي في هذه الصراعات. لكن النزاع بين الهورناتشيين والمورسكيين شكل السبب الأساسي لهذه القلاقل التي لم تهدأ سوى مرتين أو ثلاث لسنتين معدودة" (74).

ليس الهدف من هذا الفصل معالجة الصراعات الداخلية بين القادمين الجدد من شبه الجزيرة الإيبيرية ولا تطور الضفة

اليسرى لأبي رقرق، بل الإشارة إلى تأثيراتها على الحياة في مدينة سلا. غير أنه من المفيد إدراك أصل العداوة العميقة والمستديمة بين أهلي الرباط وسلا، وفهم بعض العناصر التاريخية الفاعلة في صورة السلاويين عن أنفسهم.

لم يكن باستطاعة المورسكيين الاستقرار بسلا كجماعة: فما حملوه معهم من الأندلس من عادات ولسان وفتور في شعائرهم الدينية وميلهم إلى التعامل مع التجار المسيحيين، كلها عوامل أثارت حنق سكان سلا والقبائل المتحالفة معهم. علاوة على ذلك، كان أهل الأندلس قد رفضوا مساندة العياشي في جهاده ضد الإسبان، بل واتهموا بخيانتته هكذا شاور هذا الأخير العلماء في شأنهم فأفتوا بجواز مقاتلتهم تقول الفتوى: "لأنهم حادوا الله ورسوله ووالوا الكفار ونصحوهم ولأنهم تصرفوا في مال المسلمين ومنعوه من الراتب وقطعوا البيع والشراء عن الناس وخصوا به أنفسهم" (75). وعليه، وجه العياشي نيران مدافعه نحو القصبية، في حين قام ابنه رفقة خمسة آلاف جندي بحصار الضفة اليسرى من موقع شالة. وقد استمر الهجوم والحصار مدة سنة، 1632-1631، لكن دون نتيجة.

أربع سنوات بعد ذلك، قام أندلسيو الرباط عقب تغلبهم على الهورناتشيين واستيلائهم على القصبية، بوضع قنطرة من المراكب على النهر لنقل المدفعية والجنود قصد حصار سلا. لكن، تمكن العياشي من الدفاع عن المدينة. فقد حطم القنطرة ورفع الحصار. تم ذلك بمساعدة الأميرال الإنجليزي، راينسبورو الذي كان بالمرسى على متن أسطوله في مهمة افتداء الأسرى النصارى. تبع ذلك حصار آخر على الرباط. فبمساعدة الأميرال استطاع العياشي قطع المؤن عليها وإحراق حقولها. إثر ذلك

فرض السلاويون شروطهم على أهل الأندلس من أجل الهدنة: أولاً، إصلاح الخسائر التي أصابت سلا، ثانياً، الحصول على نصف مداخيل الجمرك وغنائم القرصنة، ثالثاً، عودة الهورناتسيين إلى القسبة. بعد ذلك بقليل غادر الإنجليز المرسى واستعاد السلطان السعدي سلطته على الرباط. لكن ما أن مرت بضعة أشهر حتى هاجم العياشي الأندلسيين من جديد. غير أن هؤلاء استجدوا بالبربر الدلائيين المتحكمين في منطقة خنيفرة. فكانت الحرب بين الطرفين في إقليم الغرب، انهزمت على إثرها قوات العياشي. عندئذ التجأ هذا الأخير إلى قبيلة الخلط الحليفة لكنها غدرته وقتلته. كان ذلك سنة 1641. وبذلك وضع الديلاييون حدا لاستقلالية المدن - الدويلات الثلاث لأبي رقرق وتمكنوا من مراقبة المنطقة. فقد جسدت الهيمنة على المرسى بسبب الدور الذي لعبته كمستودع للتجارة الأوربية في السلاح الناري والبارود، شرطاً أساسياً لبط السيطرة على المغرب. أثارت هذه العقود الثلاثة من الصراع، من أجل التحكم في هذا الجزء الحيوي من الساحل المغربي، تناقراً بين التركيبات البشرية لضفتي أبي رقرق، تمثل في المواجهة بين سلا والقبائل المجاورة من جهة، والمهاجرين الأندلسيين كخصم خطير ومفاجئ من جهة أخرى.

تحولت صراعات القرن 17 هاته، مع مرور الزمن، إلى ذاكرة تاريخية غيومة. فقد نعت السلاويون، في البداية القادمين الجدد إلى الرباط بـ "النصارى القشتاليين"، ثم فيما بعد بـ "لمسلمين ذ الرباط"، وهي نعوت تشير بنوع من التهكم إلى فتور شعائهم الدينية. وفي المقابل وبسخرية موازية يتحدث الرباطيون عن أهل سلا، بقولهم أن هؤلاء "كَيْخَمَاقُوا مع

العصر". وترد ذاكرة السلاويين بالقول، أنه في زمن العياشي لما كان الرباطيون يتعاملون مع النصارى خلال النهار، كان السلاويون ينهمكون في أشغالهم، وعقب صلاة العصر يحملون السلاح لمحاربة خونة الرباط. لكن صارت المدينتان، "ضمن تجاور بعضهما مع بعض"، على حد تعبير راينسبورو (76)، إخوة - اعداء. فقد سميتا بالعدوتين، وهي كلمة تذكر الناس بالأصل اللغوي المرتبط بالعداوة. لكن، تحولت هذه الكراهية المتبادلة بين أهلي الضفتين إلى مجرد مزاح. يعبر عن ذلك مثل سديد: "وَحَا يَوْلِي الْوَادِ حَلِيبٌ وَالرَّمْلُ زَيْبٌ مَا يُكُونُ شِي الرِّبَاطِي لِلْسَّلَاوِي حَيْبٌ". بل حتى أهلي الرباط كانا "إخوة- أعداء". ورغم كل ذلك، كانوا مسلمين ونوي قابلية لاستيعاب الثقافة العربية للبلاد.

59) - P. Ricard, « la ville des deux rives », in Essai de Rabat - Salé et sa région, Rabat, 1931, pp. 7-13, R. Ricard, « La côte atlantique au début des XVI^e siècle d'après des instructions nautiques portugaises », in Hesperis, 1937, p. 239 s.

(60) - مدن المغرب وقبائله، ج 1، ص 18 وما تلاها.

(61) - الحسن الوزان، وصف إفريقيا، نشر إيبولار، باريس، 1956، ج 1، ص: 169. [النص العربي مأخوذ

عن ترجمة محمد حجي ومحمد الأحضر، طبعة 1980، ج 1، ص: 164 - 165].

62) - J. Berque, « Médinas, ville neuves et bidonvilles », in les cahiers de Tunisie, n° 21-22, 1959, pp. 8 s.

(63) - الإتحاف الوجيز، ص: 87، القادري، نشر الثنائي، نشر غرول، الأرشيفات المغربية ج 21، 1912،

ص 20. راجع ضمن نفس السلسلة، 1906، ص 170. وأيضاً كوستي، بيوتات سلا، طبعة 1931، ص: 27.

- (64) — حول هذا الاحتفال، أنظر براون ، ن.م.
- (65) — ابن علي الدكالي، إتخاف أشرف الملا ببعض أخبار الرباط وسلا ، مخطوط خ.ع. الرباط ، د. 11 ص: 43-43.
- (66) — يقدم الناصري ملخصا مأساويا حول هذا الانقلاب في موازين القوى ، من وجهة نظر إسلامية، الاستقصا ج 2 ، ص 155 - 156. — أنظر أيضا بخصوص سقوط المراكز الساحلية في يد الإيبيريين، مدن المغرب وقيادته، ج 1 ص: 131.
- (67) — يقول لاني بروفانسال في كتابه "مورخو الشرفاء" (طبعة باريس ، 1922) ص: 347 : "ربما لا يوجد في الساعة الراهنة من بين رجال التاريخ المغربي ، باستثناء الإمامين الإدريسيين (الأكبر والأزهر)، من هو أشهر وأكثر شعبية من المجاهد محمد العياشي" [عن تعريب ع. الخلافي].
- (68) — الاستقصا ، ج 3 ، ص 108.
- (69) — حول حياة العياشي والصراعات الداخلية التي أدت إلى نشوء القوة الدلالية، أنظر ، محمد ححي، الزاوية الدلالية، الرباط، 1964 ، ص: 143 وما تلاها.
- (70) — يعالج بروديل هذه المسألة التاريخية بتفصيل في كتابه :
La Méditerranée et le monde méditerranéen à l'époque de Philippe II , Paris, 1949, pp. 576 s.
- (71) — مدن المغرب وقيادته، ج 1 ، ص 65 ، الإنحاف الوجيز، ص 30. — من جهة أخرى، يبدو أن فاس وتطوان قد احتضنتا المورسكيين دون صعوبة.
- (72) كانت سلا قد أرسلت وفدا إلى السلطان بمدف الحصول على دعم عسكري لمواجهة النصارى، لكن دون جدوى. أنظر "تاريخ الدولة السعدية" لمولف مجهول، نشر كولان، الرباط ، 1934 ، ص 103. راجع أيضا "الزاوية الدلالية" محمد ححي ، ص 170 وما تلاها، و"الرباط لجناك كايي، ص 209 وما تلاها.
- (73) — الإنحاف الوجيز، ص: 11 - 12 . — حول تحالف القبائل بقيادة العياشي وتزكية العلماء له من أجل "إعلاء كلمة الله ورد الظلم عن ضعاف الأمة"، أنظر الاستقصا ، ج 3 ، ص: 129 - 131.
- (74) — ج. كايي ، ن.م. ص : 216.
- (75) — الاستقصا ، ج 3 ، ص 130 - 131.
- (76) — المصادر الدقيقة لتاريخ المغرب، السلسلة الأولى، أرشيفات هولندية، ج 5 ، ص 309.

الفصل الخامس

قراصنة سلا

"مثلما في كل أرض لصوص فسي
كل بحر قراصنة" (77)
القبطان جون سميث
زعيم فرجينيا

" يتحدث التاريخ ورواياته كثيرا عن قرصنة سلا. لكن، على عكس ما قد نعتقد من أنهم أوباش استطاعوا تكوين قوة بحرية لها ما يكفي من المدافع لردع اللصوص، فهم ذوو بعثات دبلوماسية ومراسلات ومصاريف" (78).

يعود تاريخ صناعة السفن والقرصنة في سلا إلى بداية القرن الثالث عشر. لكن تطور الأسطول القرصاني الذي أربع أعالي البحار وسواحل أوربا لم يبدأ إلا عند مجيء الهورناتشين والموريسكيين واستقرارهم بالضفة اليسرى لنهر أبي رقرق. لقد أكدت الدراسات الفرنسية حول القرصنة "أن مدينة الرباط الحالية وليس سلا، هي التي أوت المغامرين الشهيرين، الملقبين بالسلاويين أو قرصنة سلا الذين هم بالضبط، كما يجب أن ندعوهم اليوم، قرصنة الرباط" (79). ورغم أن تنامي القرصنة ارتبط من دون شك بالمهاجرين الجدد، فإن لوائح الرياس والملاحين تشير بوضوح إلى الدور الفعال الذي لعبه أهل سلا في "إعادة بناء ذلك التوازن الطبيعي بين المسلمين والنصارى الذي أفسده التاريخ" (80). لقد ساهمت القرصنة في أوائل القرن السابع عشر في تكوين ثروة مشتركة بين الجمهوريات الثلاث ولكن أيضا في الكثير من نزاعاتها الداخلية.

ففي الفترة الممتدة من 1618 إلى 1626، وحدها، - وربما كان في الأمر شيئا من المبالغة - أسر قرصنة أبي رقرق 6000 نصراني وحصلوا على غنيمة وصلت قيمتها إلى 15 مليون جنيه (81). فالأسطول القرصاني الذي أغار على سواحل إنجلترا وفرنسا وإسبانيا كان يتوفر على 30 إلى 40 سفينة. وكان لكل سفينة زهاء 20 مدفعا، يحركها حوالي مئتي ملاح (82). وتكمن بعض عوامل نجاح هؤلاء القرصنة في الطبيعة الخاصة للحاجز

الرملي لمدخل وادي أبي رقرق والذي لا تدخل مرساه سوى السفن الصغيرة نسبياً. وعليه، كان يستحيل على السفن الأوربية ذات الحمولة الهائلة مهاجمة القرصان إلا في أعالي البحار.

ألفت عشرات الكتب والمقالات حول قرصنة سلا، ركزت كلها على دور المرتدين في تنظيم القرصنة وقيادتها (83). لقد جنب أبو رقرق، بكل تأكيد، عناصر متنوعة من قرصنة مدن البحر الأبيض المتوسط. فبغض النظر عن الدين، نلمس في نفس الفترة، عدة تشابهات في البنية الاجتماعية والاقتصادية بين الجمهوريات الثلاث والجزائر وتونس وطرابلس من جهة وجينوة وبيزة وليفورنو وبرشلونة من جهة ثانية. وتستحق هذه الخصائص المشتركة للحضارة المتوسطية في القرن السابع عشر (84)، بما في ذلك الدويلات البحرية لشمال إفريقيا أن تدرس من جميع الجوانب. ورغم ما يظهر من اختلافات "إيديولوجية"، يبقى من المفيد أن نرصد على ضوء ذلك، منطق القرصنة وأهميتها بالنسبة للسلاويين.

أوضح محمد حجي في فصل تحت عنوان "أسطول الجهاد أو القرصنة السلاوية" أن المعنى العربي لكلمة "قرصنة" لا ينسجم مع الدلالة التي تمنحها إياه اللغات الأجنبية. يقول: "أعني بالقرصنة السلاويين أولئك المجاهدين الأندلسيين والمغاربية الذين خاضوا بسفنهم عباب البحر للدفاع عن حوزة الوطن أو للثأر من الإسبانيين الذين ساموا المسلمين في الأندلس سوء العذاب وأخرجوهم من ديارهم وأموالهم بغير حق" (85).

ينظر أهل سلا، إذاً، إلى القتال والسلب في أعالي البحار أو في سواحل أوربا من باب مواصلة جهاد الدول الوسيطة والدفاع عن الثغور الساحلية على غرار ما قام به العياشي. لقد حظي

القراصنة "نوو الشهامة والعقل السامي" (86) ببركة صلحاء المدينة وبالاندماج بين سكانها. لكن هذا لا ينفي مشاركة القراصنة المرتدين الذين كان غرضهم من القدوم إلى سلا هو اقتسام غنائم البحر. لا يزال أهل المدينة، إلى اليوم، وهم يتكلمون عن العائلات المرتدة القديمة، يقولون بنوع من السخرية: "شوف ف صندوق احصاصة توجد طاكية النصارى، ولغاناشة لعلوج ف أصلهم ظاهرين من زروقيت عينيهم". ورغم أنهم كانوا إسلاميين، لم يكن أصلهم ليعيق انصهارهم في قواعد المجتمع وقيمه، ولا ليمنعهم من بلوغ مراتب الجاه. ثم إن وطأة الاندماج الاجتماعي والثقافي جعل من هؤلاء القراصنة المرتدين مجاهدين في سبيل الله.

التجارة والرخاء في أفضل مرسى بالمغرب.

كانت سلا، ولوقت طويل، مرسى هاماً للتجار الأوربيين والمغاربة. ففي القرنين 17 و 18، شهد مصب أبي رقرق نشاطاً تجارياً كبيراً. فقد كان الأفضل في المغرب بدون منازع. وكان من الطبيعي أن تتعايش القرصنة والملاحة. كان السلاويون يشترون من السفن الأوربية القادمة إلى الميناء المواد المصنعة وتحديداً الأسلحة والبارود، ويحصلون منها على أهم الغنائم. أما التهريب فكان، هو أيضاً موضوع رواج تجاري عالمي في المدن المغربية، على غرار مدن ليفورنو وبيزة وجينوة لأن أهم أسواق هذه المواد وجدت في أوروبا الغربية. علاوة على ذلك كانت تتطلب آليات افتداء الأسرى اتصالات دائمة بين الأمم الأوربية والمغرب. وغالباً ما كانت تتم المحادثات في الرباط وسلا بين الأخصائيين، أعضاء البعثات الدبلوماسية الأوربية من جهة وتجار العدوتين من جهة ثانية (87).

تمثلت أهم الوفود التجارية بحاضرتي أبي رقرق في هولندا وإنجلترا. وقع الطرفان معاهدات تجارية في سنوات 1610، 1615، 1657، 1658 و1659. وقد تميز الاتفاق الأخير باستقبال المستعرب الشهير جاكوب جوليوس لوفد سلاوي يرأسه إبراهيم معنينو، أحد أكبر وجهاء المدينة. اتفاق كان من نتائجه قبول الطرف المغربي إرسال مجموعة من المخطوطات. في أواسط القرن 17، استمر الفرنسيون في الحفاظ على علاقات تجارية متينة مع مرسى العدوتين، بل وحصلوا على قنصلية عامة، الأولى من نوعها بزئقة القناصلية بالرباط. والواقع، يصعب علينا تقييم القيمة الإجمالية للتجارة الخارجية في ذلك الحين، إلا أن بعض المعلومات تشير إلى أهميتها البالغة. فمدينة مرسيليا، مثلا، كانت ترسل سنويا عدة سفن إلى سلا حمولة الواحدة منها تفوق 4000 كرونة. وتعود هذه السفن إلى فرنسا محملة بالجلود والصوف وريش النعام وقطع الذهب. لقد لعبت سلا باعتبارها محطة للقوافل الآتية من السودان دورا هاما في تفعيل الصادرات نحو أوروبا. فإلى جانب الحبوب والجلود حملت القوافل المعادن النفيسة مثل النحاس والبرونز ومواد متنوعة كالصمغ والسندروس والفرييون وسلع أخرى، كمالية بالنسبة للأوربيين، مثل التمر والعاج والريش. ومن جهة أخرى روجت أسواق سلا بضائع أوربية كالورق والصبغة والأنسجة. وقد وصل حجم الاستيراد من فرنسا خلال سنة واحدة، في نهاية القرن 17، إلى نصف مليون فرنك فرنسي. كانت إذا الأرباح التي حققتها فرنسا بمدينة سلا هامة. ومن الجانب المغربي، كان المخزن يتمتع بحقوق جمركية على كل المنتجات الواردة والصادرة بنسبة تتراوح ما بين 10 و 25 % (88).

ويذكر أسير مسيحي، قضى سنوات عديدة في المغرب عند نهاية القرن 17 أن التجار الأكثر غنى كانوا يقطنون سلا وليس الرباط، وأنهم كانوا يتكونون من المسلمين واليهود على السواء(89). فغالبا ما وصفت الطائفة اليهودية بالمغرب بأنها نافذة البلاد على أوروبا. من هذا المنظور، وجب علينا التنبه إلى وضع هذه الطائفة ودورها داخل المدينة، خلال القرنين 17 و18.

الطائفة اليهودية بسلا.

عندما فتح مولاي إدريس الأول منطقة أبي رقراق، دخل أغلب السكان، النصاري واليهود والمجوس، في الدين الجديد الإسلام. لكن، تشير روايات عديدة إلى أن اليهود لم يعتنقوا كلهم الإسلام. إذ التجأ بعضهم إلى جنوب المغرب. وقد حافظ تراثهم الشفهي على ذكرى إقامتهم المبكرة بسلا وبقاء آخرين بالمنطقة، ربما كانوا من العناصر التي قدمت إلى المدينة للعيش بها عندما قام بنو العشرة بإعادة بناءها(90). ويرى ابن علي بخصوص أصل يهود سلا(91)، أنهم كانوا يقيمون بها منذ ما قبل مجيء العرب. وقد تواصل تطورهم بعد الفتح الإسلامي في أحد أهم الأحياء وأفضلها، وهو الكائن قرب مدرسة الطب المرينية، أي حومة باب احساين الحالية. وعقب سقوط غرناطة عام 1492، هاجر اليهود من إسبانيا إلى سلا، كما إلى مدن أخرى، وجلبوا معهم جملة من مظاهر الرقي الأندلسي. ويذكر أيضا أن ما يقرب من 400 أرملة يهودية استقر بهن الحال بسلا إلى جوار أبناء دينهن، إثر طردهن من البرتغال عند نهاية القرن 16. لقد كن يمتهن الطرز "الصقلي" ويشغلن مع بعضهن البعض ويعلمن فنهن لنساء المدينة، المسلمات منهن واليهوديات.

وبضيف ابن علي أن اليهود عاشوا في رخاء كبير بالمدينة، من القرن 13 إلى 18، بحكم احتكارهم للتجارة والمعاملات المصرفية وقيامهم بمهام مخزنية هامة مثل السفارة لدى أمم أوروبا. فقد حظوا بثقة السلاطين. وأبرزهم موشي بن عطار المنتمي لعائلة سلاوية معروفة بالعلم والتجارة. فقد شغل وظيفة المصرفي العام لدى السلطان مولاي إسماعيل، في بداية القرن 18، ووقع على معاهدة 1721 مع الإنجليز، باسم هذا الأخير. وكان في نفس الوقت نقيب الطائفة اليهودية بالمغرب. ولا يزال منزله، "دار بن عطار"، الذي يشبه القصر، قائما إلى اليوم بسلا، وسط حومة باب احساين، حيث تحول إلى مدرسة للبنات. ويشير نفس المؤرخ، أيضا إلى إمكانية وجود مقبرة يهودية قديمة بالمدينة. فقد عثر في حدائق بطابة، بجهة الشرق على شاهدة تحمل تقييدا عبريا: "هنا يرقد جثمان عمران بن حيوت، أمين المال بالمملكة الشريفة".

تؤكد النصوص التاريخية المتوفرة هذه الصورة العامة. فقد أوضحت الدراسات المتعلقة بمختلف الطوائف اليهودية بالمغرب أهمية سلا كمركز للعلم والثروة (92). لكن، يبدو أن يهود سلا وبخاصة وجهاتهم، غلب عليهم التنقل بين حواضر شمال إفريقيا وأوروبا. فقد أثرت لحظات التوتر السياسي على نحو سلبي في وضعهم. فغيلان، مثلا، الذي حكم منطقة الغرب خلال الستينات من القرن 17، كان قد أساء معاملتهم وأجبر بعضهم على مغادرة المدينة. وعلى العكس من ذلك كان مولاي الرشيد، الذي استرجع سلا عام 1667، "أكبر أصدقاء شعب بني إسرائيل"، حسب ما تورد المصادر (93). لكن، كان لهذه الحركية وجه آخر. فعندما تتدهور الحالة الاقتصادية في مدينة ما، كان اليهود يهجرونها في

اتجاه مدينة أخرى. هكذا، مثلاً، في نهاية القرن 17، حينما أصابت المجاعة مدينتي مكناس وفاس، حلوا بسلا، حيث كانت الأزمة أقل حدة. عموماً تنطبق التحركات البشرية من سلا وإليها على المسلمين واليهود على حد سواء. لكن هؤلاء كانوا أكثر حركية. فقد كان النزوح من مكان إلى آخر عملية سهلة نسبياً بسبب وجود شبكة عريضة من العلاقات والتحالفات بين المجموعات اليهودية المنتشرة عبر البلدان والمدن.

ويرى جون لوي مبيج أن حركية بني إسرائيل وشبكاتهم مكنتا اليهود المغاربة من أن يلعبوا دوراً أساسياً في الوساطات بين المغرب وأوروبا خلال القرن التاسع عشر (94). غير أن لهذا الدور دوراً تاريخية. ويقدم النشاط الاقتصادي ليهود سلا ما بين القرن 16 و18 نماذج كثيرة على ذلك. لكن قد يكون في الأمر ضلالة كما هو واضح من هذا النص الفرنسي لسنة 1681 الذي يزعم بأن اليهود كانوا بسلا أوفر عدداً من المسلمين وأن جل تجاراتها كانت بيدهم (95). ويبدو أن تجارة الأسلحة كانت قد أصبحت حكرًا على اليهود المارانوس القادمين من شبه الجزيرة الإيبيرية في نهاية القرن السادس عشر. والملاحظ أن طائفة بني إسرائيل السلاوية كانت مقسمة إلى شطرين. الأول، يمثل القادمين الجدد من إسبانيا، والثاني، قدماء المدينة. وهو انقسام يوازي، لكن بحدّة أقل، الإنشقاق بين الموريسكيين داخل المجموعة الإسلامية. لقد تميز اليهود المنحدرون من إيبيريا المعروفون تحت اسم المهجرين، "مكورشيم"، بسلوك خاص: لباس رومي وإحساس بالتفوق الثقافي. ومن ثمّ نظر إليهم يهود البلد البلديون، "توشفيم"، كجماعة متكبرة، شاذة وخطيرة لدعمها حركة ساباتي زيفي التبشيرية (96).

ومن جهة أخرى، احتضنت سلا يهودا ربانيين، من أبرزهم الحبر حايم بن عطار، في أواخر القرن 17. وهو رجل علم، كتب شروحات حول الثوراة ودرس الفلسفة اليهودية والمذهب الرباني في مدرسة كان قد أنشأها بالمدينة. وعلى غرار نظرائه من المسلمين، حظي حايم بإجلال اليهود لورعه وكراماته. ومن الأساطير المروية بشأنه، انه كان يخفي قدراته الخارقة عن الناس حتى تظهر الأحداث ما يريد الله منه. وتمثل حياته نموذجاً للحركة التي طبعت يهود سلا. فقبل ذبوع صيته كان قد تنقل كثيراً بين المدن والقرى. ثم استقر به المقام في مسقط رأسه سلا، لكنه عاش بها ظروفًا قاسية، دفعته إلى الهجرة من جديد. فرحل إلى إيطاليا ومن ثم إلى القدس حيث أقام معبداً وتعدد أتباعه. ومات بها سنة 1743 (97).

أحمد حجي : المجاهد والولي:

استطاع مولاي الرشيد، حوالي عام 1670 - إرساء سلطة الشرفاء العلويين في كل أرجاء البلاد. لكن، رغم سيادة السلطان على المدينة، ظلت عند السلاويين نزعة حية نحو الانفصال، كما تؤكد أحداث القرن الثامن عشر.

تقلصت أهمية سلا بسبب تآلق جارتها الرباط التي هي اليوم أكبر مساحة وأوفر سكانا. فإبان الجمهوريات الثلاث ارتبط نور سلا في القرصنة والتجارة بحيوية الرباط، وذلك على نحو وثيق. حقا أن كل مدينة كان لها حاكمها، لكن تحت إمرة السلطان. وقد كان الحكام الذين تعاقبوا على سلا في القرن 17 ينتمون في غالبيتهم إلى عائلات لا تزال موجودة إلى اليوم، مثل المعاننة والفنانشة. عائلات شغل أفرادها، أيضا، مهام السفارة لدى أمم أوربا(98). أشهرهم القرصان عبد الله بن عائشة، الذي

مثل السلطان عام 1698 - 1699 لدى ملك فرنسا، والذي خلفت سفارته صدى طيبا في البلاط الفرنسي: "في المجالس الباريزية مجده الفرنسيون ونوهوا بكرمه وحذقه ولطفه. ففي البلاط كما في الشارع، ردوا كلماته الحلوة ونباهته، وهو ما تناقلته الصحف بمحابة" (99).

لكن في الوقت الذي تبادل فيه المغرب وأوروبا السفارات والتجارات، توالى الجهاد ضد القوى المسيحية بأعالي البحار والسواحل. فقد قامت فرنسا سنة 1680، للنثار من عمليات القرصنة، بحصار سلا وقصفها، مثلما فعلت سابقا، قبل 1629 ولاحقا، خلال القرنين الموليين، لكن بخسائر أكبر. وفي إنجلترا ترسخت صورة سلا في المتخيل الإنجليزي عبر كتاب دانييل ديفو، « Robinson Crusoe »، وغروب ستريت الذي انشغل طوال القرن الثامن عشر بـ "القراصنة" و "الاسترقاق". وقد أنشد أحد الشعراء الإنجليز سنة 1699 أبياتا بشأن حملة على القراصنة الأتراك، في سواحل شمال إفريقيا. وهو أسلوب آخر للإشارة إلى قرصنة سلا (100).

وقد مارست الدول الأوروبية أيضا القرصنة. ففي رسالة موجهة إلى هولندا سنة 1640، اشتكى السلاويون من اعتداء بحارة هولنديين على اثنتين من سفنهم. وتحتوي الرسالة على لائحة بأسماء الأشخاص الذين كانت لهم بضائع بهما، من بينهم أحمد حجي، آخر أكبر صلحاء سلا، الذي ساهمت شخصيته في شهرة المدينة. وقد كان المسجد الذي يحمل اسمه والقائم قرب ضريحه، ولزمن طويل، ثاني أكبر جامع للخطبة بعد المسجد الأعظم. ويقع المسجد بمحاذاة السوق الكبير، وسط الأحياء الشعبية والتجارية. وقد اعتاد حفدة الولي أن يعتبروا انفسهم

شرفاء في حين يعتقد الناس أنهم فقط "أولاد السيد". وعائلة أحمد حجي وافرة العدد. وقد لعب أفرادها، خصوصا منذ نهاية القرن التاسع عشر، أدوارا طلائعية في حياة المدينة.

جمع أحمد حجي بين مزايا التصوف والجهاد. تحكي الروايات التاريخية أنه قاد سنة 1681 هجوما ضد الإسبان بالمهدية. يقول ابن علي: "وحضر هذا الفتح جملة من أعيان أهل الله كان فيهم الشيخ سيدي أحمد حجي في جملة من حضر. ومن ثم اتصلت معرفته بأمرير المؤمنين مولانا إسماعيل رضي الله عنهما كما اتصلت معرفة نرية سيدي أحمد حجي بنرية مولانا إسماعيل من بعده" (101). وساهم أحمد حجي في المفاوضات اللاحقة مع الإسبان. وهي أدوار جعلت السلطان يمنحه "ظهير التوقير والاحترام". أما الإسبان فأهدوه تذكارا رمزيا، وهو سيف اعتر به أخلافه جيلا بعد جيل.

تشبع أحمد حجي بالتعاليم الصوفية للشيخ الجزولي (102) وأسس طريقة دينية بالمدينة، منحها اتباعه طقوسا روحانية أقرب إلى الجنب من السلوك، على غرار الطرق السلاوية الأخرى. وتشيد الروايات ببساطة عيشه واعتكافه على الصلاة كما تتحدث عن اشتغاله بإحدى الحرف المتواضعة، الدرزة، حيث كان يقضي اليوم كله منكبا على منواله، مرددا نكر الله دون انقطاع. أما أتباعه فقد كانوا يتكونون من الصناع في سلا وخارجها.

وقد كانت جنازته يوما مشهودا. فدفن في الزاوية التي أسسها وحبسها على نريته، حيث بنيت عليه قبة عجيبة. وقد ورث بركته، ابنه عبد الله الجزار الذي أصبح "مقدم" الطريقة. أما حفيده، الفقيه فارس أبو مدين، فهو الذي أشرف على بناء مسجد الخطبة الكائن قرب الضريح، في بداية القرن 18، والذي

عرف أول الأمر بجامع مولاي إسماعيل. فكان إماما له وخطيبا بأمر من السلطان. ويذكر أن هذا الأخير كان قد أعلن المسجد والزاوية وما يحيط بهما "حرما"، لاتقربه سلطات المخزن ولو لجأ إليه المضطهدون. وقد استفادت هاتين المؤسستين من مداخيل الأوقاف، الخاصة والمخرنية، وتمكنت الزاوية من امتلاك خزانة كبيرة. وتعتبر عائلة حجي السلالة الوحيدة في المدينة التي يذكرنا تأثيرها ونفوذها بالسلالات الصوفية التي لعبت دورا اجتماعيا في البادية. لكن ، تعكس مزايها هذه العائلة أولا وقبل كل شيء قيم الصلاح والعلم في الحاضرة (103).

يذكر ابن علي في بيوغرافياته، فضلا عن أحمد حجي ترجمة أربعة عشر رجلا من أهل التقوى والمعرفة، عاشوا ما بين 1660 و 1780. بعضهم من عائلات عريقة، والبعض الآخر شرفاء، لكن ، يعرفون كلهم بـ "أولياء الله". وقد شغل اثنان منهم، على الأقل، وظائف هامة. واللافت للنظر في قراءة هذه التراجم، هو التشابه الظاهر لنماذج حياتهم الروحية والثقافية وإستمراريتها، كما لو تعلق الأمر بسلالة واحدة. وتقدم سيرة أحمد بن عاشر الحافي المتوفى عام 1747 مثالا صريحا على ذلك. لقد كان، في نظر ابن علي، علامة عصره ومفخرة مدينته. فقد قرأ على مشايخ عظام، ودون سيرهم وتعاليمهم، وألف في مناقب الشيخ ابن عاشر ووضع فهرسة لمشايخه، بل وأيضا لتلاميذته، أمثال القاضي محمد بن الحاج زنيبر المتوفى عام 1780 وابنه الحاج محمد، قاضي سلا وخطيب جامعها الأعظم. هكذا توارث أبناء المدينة نماذج مثالية من العلم والصلاح على مدى الأجيال. وهكذا أيضا، خلد المؤرخون التقليديون عزة هذه الحاضرة بتوظيف تراجم علمائها وأوليائها (104).

- (77) — عن ب. ميكن ، ن.م. ، ص: 256.
- (78) — R. Brown in the introduction to the *Adventures of Thomas Pellow of Perryn, Mariner. of Three and Twenty years in Captivity among the Moors*, London, 1890, orig, éd.1740.
- (79) — R. Coindreau, *les Corsaires de Salé*, Paris 1948, p. 40.
- (80) — الكلام لفيرناند بروديل، وهو مقتبس عن :
J. Monlau, *Les états barbaresques*, Paris, 1964 , p. 39.
- ويشير إلى أن القرصنة كانت ظاهرة أوروبية وشمال إفريقية على السواء.
- (81) — المصادر الدفينة ... أرشيفات هولندا، ج 5 ، ص 11.
- (82) — ج. كايي ، ن.م. ص 225 ، الإنحاف الوجيز ، ص 20.
- (83) — أنظر ، ل. برونو، ن.م. ، حيث يخلص إلى القول أن " الحاضرة الملاحية للرباط وسلا كانت صدفة أفرزها الخارج ".
(84) — ف. بروديل، ن.م. ص 693 وما تلاها.
- (85) — م. حجي ، ن.م. ص : 174.
- (86) — إنحاف أشرف الملا ، ص 20.
- (87) — المصادر الدفينة... أرشيفات هولندا ، ج 5 ، ص 15 وما تلاها... راجع أيضا :
H. De Castries , « le Maroc d'autrefois , les Corsaires de Salé in *Revue des Deux Monde* 1903, p. 828.
- (88) — مدن المغرب وقيائله، ج 1 ، ص 120 وما تلاها .
- (89) — *Travels of, the Sieur Monette in fez and Morocco during his Eleven years Captivity in those Parts*, London , 1710, p.5.
- (90) — الأرشيفات المغربية ، ج 6 ، 1906 ، ص 39 ، 42 ، 56 ، 68 ، 128 ، مدن المغرب وقيائله، ج 1 ص 210.
- (91) — يقال أن ابن علي قد ألف كتابا حول تاريخ اليهود بالمغرب، لكنني لم أعثر عليه. فقد كان يلتقي بصفة منتظمة مع كبير أحبار المدينة، رفايل إنكاوا المتوفى عام 1935، والذي كان يزوده بأهم المعلومات. أما المعطيات الواردة في المتن فهي مأخوذة عن :
- Archives of Alliance israelité in Paris*, n° VI, B 27 (Mme K. Nahum, « une page d'histoire », Salé, 12/15/17).
- (92) — Cf. Y.M. Toledano, *Sefer ner ha - ma 'arav : hu toldot yisra 'el b-Maroco*, Jerusalem, 1904, pp. 50,69,74,90,117,129,133,152, Rabbi Y. Sasportas, *Safér tsaytzat novel tzvi*, Jérusalem, 1954.

ولد ساسبورتاس، المنحدر من ابن ميمون، في وهران وعاش في سلا مدة طويلة من الزمن، خلال القرن 17. ورحل بعد ذلك إلى أوروبا، لكن أثناء إقامته بسلا كانت له علاقات وزيارات مع بلدان بعيدة كالقدس وليفونرو وهامبورغ وأمستردام. وكان قد عينه السلطان سفيرا بإسبانيا. وقد بين سوارز وتاشي في مدخلهما

النقدي لكتابه الطريقة الإيجابية التي تعامل بها أهل سلا مع بعثة سباني زيفي. راجع أيضا :

H.Z. Hischberg, *Toldot kayhudim b-afriqua ha-tzfonit*, 2 vol. Jérusalem, 1965, I.D. Abbou, *Musulmans Andalou et Judéo-Espagnols*, Casablanca, 1953.

(93) — طوليدانو ، ن.م. ، ص116.

(94) — ج.ل. مبيج، ن.م. ج2 ، ص 88 وما تلاها.

(95) — المصادر الدينية... أرشيفات فرنسا، السلسلة الثانية، ج1 ، ص 582: "اليهود بسلا أوفر عسدا من المسلمين والتجارة من دولهم لا تساوي شيئا..." ، أنظر أيضا ن.م. ج5 ، ص 526 ، حيث تتحدث رسالة كتبت عام 1699 عن 400 إلى 500 من التجار اليهود يقطنون بالمدينة، لكنهم مرهقون بالضرائب ومعرضون للمصادرة المخزنية.

(96) — حول سباني زيفي (1626 — 1676) وانتشار حركته في العالم اليهودي، أنظر :

M. Margolis and A. Marx, *History of the Jewish people*, New-york, 1960, pp.558 ff.

(97) — طوليدانو ، ن.م. ص 155 ، وأيضا :

DNoy, in *Shiv'im sipurim v. sipur mi-pi yhudai Maroqi*, Jérusalem , 1964 , pp. 72 ff , 141.

الذي جمع حكايات عن يهودي مغربي مزاد بإفران ، في جبال الأطلس ن حوالي عام 1890. وكان قد ولد جد هذا الرجل بفلسطين، وهو من عائلة مغربية تدعى بوطبول. وقد قدم الجد إلى سلا في الثلاثينيات من القرن 19 كمبعوث لجمعية فلسطينية "Ezrat Dalim"، لكنه لما علم نبأ وفاة زوجته في زلزال 1837 قرر البقاء في المغرب والاستقرار بإفران. هكذا تظهر لنا بجلاء حركية اليهود المغاربة منذ القرن 19.

(98) — D.O. Dapper, *Description de L'Afrique*, trans. From flemish, Amsterdam , 1686, pp. 141 ff.

كان بالرباط وسلا، حسب ما كتبه القنصل الفرنسي بالرباط سنة 1697 ، ثلاثة حكام، فضلا عن أمين التجار للملقب بقائد المرسى (المصادر الدينية... السلسلة الثانية، ج4 ، ص 546).

(99) — J. Caillé, « *Ambassades et missions marocaines en France* », in *Hesperis*, 1960, p. 51.

(100) — هدأنا الأتراك معاهدة وأسكتونا حتى حققوا مبتغاهم، أما صدقاتنا فلا تمهم " أنظر :

John Balthorpe, *the Streights voyage*, in *Hesperis*, 1929.

(101) — الإنحاف الوجيز ، ص 48.

(102) — أنظر "الجزولي" في موسوعة الإسلام. - وحول الصوفية والطرق الدينية بالمغرب

G. Drague, *Esquisse d'histoire religieuse du Maroc*, Paris, 1951 .

A. Bel, *la Religion musulmane en Berberie : Esquisse d'histoire et de*

B. *sociologie religieuses*, Paris , 1938.

(103) — بمنحنا ابن علي أهم الأخبار حول حياة سيدي أحمد حجي وسلالته بحكم ارتباطه بعائلة الولي، ذلك

أن والد أمه، الفقيه سيدي الحارثي حجي، المتوفى عام 1855، كان فقيها محترما، من الجيل السادس للولي:

الإنحاف الوجيز، ص 48، 93 - 94، وأيضا كوستي، ن.م.، ص 30 ما تلاها.

(104) — الإنحاف الوجيز، ص 90 - 116 . — غير أن كسب المعرفة لم ينحصر على طائفة معينة دون أخرى.

فبالرغم مما اشتهرت به العائلات العريقة في ميدان العلم، تاريخيا، فإن الأمر يتعلق بـسلالات روحية

وثقافية ليس إلا.

الفصل السادس

أهل سلا في القرن الثامن عشر

تمكننا المصادر المتوفرة حول القرن 18، الذي يدخل ضمن المرحلة ما قبل الإستعمارية، من تكوين صورة أكثر وضوحا عن أهل سلا وأسلوبهم في الحياة. في عهد مولاي إسماعيل، 1672-1727، كان الوضع السياسي مستقرا نسبيا بفضل فاعلية جيش "البخارى" المكون من عبيد السودان. ومعلوم أنهم أقاموا، في معظمهم بمشرع الرملة، قرب وادي سبو، بين العاصمة الجديدة، مكناس، وسلا، حيث وصل عددهم إلى 70.000 رجل. في حين، رابط آخرون بمختلف القصبات التي شيدت خصيصا لهم خارج المدن وعلى طول الطرق الرئيسية⁽¹⁰⁵⁾، منها قسبة "كناوة"⁽¹⁰⁶⁾، على مسافة بضعة أميال شمال سلا، بمحاذاة ضريح سيدي موسى. وقد علل وجود العساكر هناك بعوامل عدة: حماية مرسى أبي رقرق من هجمات السفن المسيحية مراقبة الطريق المؤدية إلى المهديّة وحفظها من غارات القبائل المجاورة، وأخيرا وهو عامل في غاية الأهمية، صيانة المدينة من أي محاولة للتمرد ضد المخزن⁽¹⁰⁷⁾. وهكذا تحكّم مولاي إسماعيل في سلا وظلت سلطة جيشه مطلقة "حتى لا ينقض عليه أهل سلا عهدهم"، كما يقول ابن علي.

غير أن مجموعة من الإشارات تدل على نوع من التوتر بين أهل سلا والعساكر. فغالبا ما اشتكى وجهاء المدينة من عيظهم لدرجة أن بعضهم اضطر لمغادرة المدينة خوفا من غضب مولاي إسماعيل. لكن، كان لهذا الأخير حلفاء أقوياء في سلا كما تؤكد ذلك رسالة وجهها السلطان سنة 1721 إلى الطاهر معينو الذي كان ربما حاكما للمدينة وقتئذ، يدعو فيه إلى احتضان الإمام لتربيتهم وتعليمهم والقراءة والأخلاق الحسنة والخياطة والطبخ، الخ. وتشير الرسالة

إلى أن هذه الدعوة هي ثقة وضعها السلطان في سكان المدينة وتحذره في نفس الوقت، من مخاطر هذه المهمة كأن تغادر الإمام المنازل في غير مناسبة، تحت طائلة قطع الرأس. وتضيف الرسالة أن المدينة والسلطان كانت تجمعهما علاقة مميزة وأن أهلها كانوا يمثلون لسلطته وأمره (108).

التضامن الحضري :

يقول ابن علي: "فلما توفي مولاي إسماعيل تواليت بالمغرب اضطرابات ضاق بها المتسع وساعت مساءات تلك المنكرات، فعظم في الناس هول ذلك المضطلع: شح مطاع وإعجاب كل ذي رأي برأيه وهوى متبع" (109). في هذه الظروف بلغت عساكر قصبه كناوة في تصرفاتها الذنيئة وإهانتها للمدينة. فانتفض الناس في الأخير وواجهوهم.

لقد فسرت هذه المواجهة بقصة حفظ شرف النساء من تحرشات العساكر المخزنية. وتبدو هذه الرواية منتحلة لكن قيمتها السوسيولوجية لا تقبل الجدل. يحكى أن أحد زعماء سلا عبد الحق بن عبد العزيز فنيش كان ذات يوم في جنان له خرج المدينة، يسقي كروم العنب، فوجد جنديا من عبيد المخزن قابضا على امرأة من نساء سلا من نوي الصون والمروءة، يريد إخراجها إلى القصبه فنادته: "يا عبد الحق، هكذا ترون نساءكم يساقون إلى الهوان وفعل الفواحش. لو كنا رجالا وأنتم نساء لما بلغت هذا الذل الذي بلغنا!" فنهاه عبد الحق وطلب منه إخلاء سبيلها. فسبه العسكري وهدده، فقتله عبد الحق ورجعت المرأة سالمة إلى محلها.

وكان القائد بسلا، في ذلك الوقت، من عائلة الحافي. فلما رجع عبد الحق إلى المدينة، خائفا من سطوته، جمع حوله رجالا

من نوي النجدة والبأس، وذهبوا إلى القائد وطلبوا منه أن يلزم مكانه، وجمعوا العدة والسلاح وخرجوا للقصة. فلما علم العبيد بالأمر فروا تاركينها خالية. فعمد عبد الحق ورجاله إلى إحراقها وتخريبها عن آخرها. هكذا تولى عبد الحق أمر المدينة وقيادتها(110).

يمكن اعتبار تولى عبد الحق السلطة بالمدينة، تجسيدا لتضامن جزئي أو كلي بين السلاويين. ويظهر الحدث أيضا وجود زعماء عظام باستطاعتهم الأخذ بزمام الأمور في الأوقات الحرجة. فالدعم الذي يمنحه الناس لممثل السلطة المركزية يرتبط، على نحو وثيق، بمدى قدرة هذا الأخير على صيانة قيمهم الأخلاقية. بمعنى، أن الإخلال بهذا الأمر من شأنه أن يدفع بهم إلى السهر على شؤونهم بأنفسهم. من هذه الزاوية، يظهر حفظ شرف النساء أكثر أهمية من الرضوخ لممثل السلطة. وفي الحدث إشارة أيضا إلى ما يفرزه اختلال الأمن بالمدينة، بصورة تلقائية، من فاعلية لدى السكان لحماية مصالحهم.

السلطة المحلية والسلطة المركزية:

يعكس هذا الحدث التاريخي مظاهر اجتماعية أخرى بالمدينة. فقد نشنت وفاة مولاي إسماعيل عهدا من الفوضى السياسية في كل أنحاء المغرب : ضعفت سلطة المخزن وتخلص الجيش من الرقابة واستبد الحكام المحليون بأقاليمهم. فكانت النتيجة أن انفلتت النواحي من قبضة المركز. في داخل المدن — كما هو الشأن بالنسبة لسلا، طفت التحالفات الداخلية على السطح ومكنت الجماعة القوية من الأخذ بزمام السلطة. وعموما شكلت القوى المناهضة للمخزن تهديدا كبيرا على أمن المدن المغربية، بإضعافها للتوازن بين السكان وممثل السلطان. وأما

عن حالة سلا فقد ساهم موقعها الجغرافي في التخفيف من حدة العصيان إزاء قوة الحكم المركزي. لكن ضرورة التصرف في الوقت المناسب كانت من وراء تمرد مفاجئ ونزعة استقلالية داخل المدينة.

بالفعل، لقد أعلن عبد الحق استقلاله عن السلطان مولاي عبد الله، وحكم المدينة وأحوازها مع عشيرته وعصبيته. عندما تمرد المستضيء ضد أخيه سنة 1738، استقبله عبد الحق بسلا وأعلنه سلطاناً، مما أدى إلى انشقاق كبير بين أهل المدينة. فقد فر، مثلاً، العلامة أحمد بن عاشر الحافي إلى الرباط حيث ظل الناس أوفياء لعهد مولاي عبد الله. ومعلوم أن المستضيء كان قد حاصر الرباط مدة سنة على رأس فيالق مكونة من قبيلة بني حسن، لكن دون جدوى. ومع ذلك، رفض عبد الحق الإذعان لمولاي عبد الله(111).

استراحت سلا من عيث عساكر مولاي إسماعيل وخرب مركزهم، مشرع الرملة. وأصبحت القوة العسكرية الجديدة بالمنطقة تتكون من قبائل بني حسن ودكالة التي كانت ترتبط بعلاقات طيبة مع المدينة وتدفع بالعديد من أفرادها للهجرة إليها. فقد خرب بنو حسن مشرع الرملة وحملوا كل أخشابها وأبوابها وباعوها هناك. إثر ذلك، التحق عدد كبير من اليهود بسلا قصد الاستقرار بها، لكنهم حافظوا على زياراتهم لها حتى نهاية العشرينيات من هذا القرن(112).

استمر استقلال سلا تحت قيادة عبد الحق إلى غاية 1766 السنة التي قتل فيها على يد السلطان الجديد، سيدي محمد بن عبد الله. كان السلطان، في بداية حكمه، قد ترك عبد الحق وشأنه رغم أن هذا الأخير كان قد أغلق عليه أبواب المدينة حينما حط

بالرباط في عهد أبيه، ورفض أن يبعث إليه بالهدايا، على النحو الذي كان متعارفا عليه آنذاك. لقد تخلص منه السلطان، في نهاية الأمر، عن طريق الزنابرة الذين كانوا قد فقدوا أحد أفرادهم قتلا على يد عبد الحق. فكانت شكايتهم إلى السلطان مناسبة للامتثال أمام حضرته. فاستنكر صنيعته وأمرهم بالنار لأنفسهم لكنهم جبنوا عنه لما كان له في قلوبهم من الهيبة. فأمر الوزعة بقتله بمراى منهم. ثم حجز أملاك الفنانشة جميعهم، والتي كانت تتيف عن المائة، ما بين أراضي وعقارات، متهما إياهم بـ "أعمال الموجبات". وباع أملاكهم لبني حسن وغرب جلهم. غير أنه عفا عنهم فيما بعد، فعادوا إلى سلا واسترجعوا ثروتهم(113).

وهكذا، بعد إحدى عشر سنة فقط، نصب السلطان ابن عبد الحق، الطاهر فنيش، قبطانا، وكلفه بمهام ديبلوماسية، في طليعتها زيارة بلاط ملك فرنسا، لويس 16 سنة 1777 والتوقيع على المعاهدة الشهيرة التي اعترف السلطان بموجبها باستقلال الولايات المتحدة الأميركية. كما ولى فنانشة آخرين رئاسة المدفعية، فبرعوا في تجهيز الثغور الساحلية. لقد عرفوا بفضل قريحتهم الفائقة، كيف يفكوا العزلة عنهم في وقت قصير(114).

أقول التجارة :

يرى بعض المؤرخين أن تدهور اقتصاد المدينة خلال القرن 19 كان نتيجة لما حصل بين سيدي محمد بن عبد الله وعبد الحق فنيش. فالسلطان، بحسب هذا الرأي، عاقب سلا على استقلاليتها بإنشاء مرسى الصويرة وتتميته(115). لكن، هناك عوامل أخرى، طبيعية، تفسر هذا الوضع. أولها، زلزال لشبونة الذي تسبب سنة 1755 في خسائر في الأرواح والممتلكات إثر الانغمار البحري الذي لحق جهة البر(116).

النتيجة : علو الرمل بمدخل المرسى، وبالتالي إعاقة حركة السفن ذات الحمولة الهائلة. وعليه، فقد تقلصت القرصنة ومداخيلها رغم استمرارية عملياتها لبعض الوقت. وضعفت أيضا رواجات التجارة الملاحية. في عام 1767، في آخر محاولة لإنفاذ المرسى استقبلت سلا أحد الخبراء الأتراك في شؤون المراسي بهدف إحياء آثار دار الصناعة. لكن ، تبين أن إصلاحها صعب للغاية حيث من شأنه أن يكلف مالا باهضا واثني عشر سنة من الجهد. هكذا، وبالإضافة إلى رغبة السلطان في تشييد مرسى جديد، يقرب من عاصمته، مراكش، ويسهل التحكم فيه، أفل نجم سلا كمدينة للتجارة الملاحية(117).

والجدير بالذكر، أن سفن القرصنة استمرت في استعمال المرسى حتى مطلع القرن التاسع عشر . بالفعل، قام الفرنسيون سنة 1765 بقصف سلا ردا على عمليات قراصين العرائش. فقد أطلقوا على المدينة أكثر من 400 قذيفة على مدى ثلاثة أيام. ومع ذلك يؤكد المؤرخون السلاويون أن "حرب سلا" كانت انتصارا لمدينتهم. لقد رأى الناس في الفوز إرادة ربانية، ذلك أن ريحا عظيمة أجبرت سفنهم على مغادرة الساحل. أما في العرائش، فقد ردعتهم مدفعية المخزن، حيث قتل ثمانون فرنسيا، أرسل السلطان رؤوسهم إلى سلا، فعلقت بالصقالة القريبة من ضريح الشيخ ابن عاشر. وربما كان في الأمر إشارة إلى أهل سلا كون السلطان لا زال قادرا على حماية ساحلهم(118).

بقي السلاويون على رأس السفن. فقد عين السلطان بمقتضى ظهير 1763 المجاهد الحاج الهاشمي، ابن الرايس أحمد عواد، قبطانا على أسطول العدوتين(119). وفي سنة 1767-1768 يظهر العواودة مرة أخرى كرايس للقراصين، بثلاثة أفراد،

وسلاويون آخرون من عائلات الطرابلسي والصابونجي والتركي(120). وقد شغلوا مهامهم تحت أمر السلطان ونفقته، كما يشير إلى ذلك ظهير 1774. ويظهر نص آخر من نفس النوع مواصلة السفن للنشاط التجاري من خلال ما يذكره سنة 1786 بخصوص تعليمات الرايس عبد السلام بن محمد ابن الفقيه الشريف العلمي السلاوي، حول منعه شحن الخمر أو الخنزير في البحر الأبيض المتوسط أو الأطلسي وحثه البحارة على احترام مواقيت الصلاة والالتزام بالاتفاقيات المبرمة مع النصاري(121). ومع ذلك، ظلت سفن العدوتين تهدد الملاحة الأوربية في عهد مولاي سليمان، ما بين 1792 و 1822، وتعود بغنائم كبيرة. وكانت تقام الاحتفالات عند العودة إلى المرسى(122). في هذا السياق يصف المؤرخ الرباطي مشهد دخول سفينة للقرصنة، سنة 1807 إلى ميناء سلا تحت رياسة عواد، والناس يهللون بعودتهم(123).

في القرن التاسع عشر، كان بسلا والرباط، من الطبجية والبحرية 1121 شخصا، ورثوا التقليد الملاحى. ويظن ابن علي أن هذا التقليد هو الذي مكن السلاويين من هزم الأسطول الفرنسي في وقعة 1851، حيث ردوا على القصف "بما [اقتدروا] عليه حسب القوة والاستعداد و[صبروا] صبرا جميلا..."(124).

لكن — مع ذلك، شهدت القرصنة والتجارة الملاحية بسلا ركودا جليا. ويعود ذلك إلى عوامل خارجية. ففي سنة 1817 اتفق مولاي سليمان مع القوى الأوربية على تجريد السفن من السلاح ووضع حد رسمي للقرصنة. وتفيد مصادر بريطانية، أن السلطان كان مقتنعا بهذا الإجراء، خصوصا لما علم بما حل بطرابلس وتونس والجزائر، وأيضا بفعل تنامي قوة الإنجليز بجبل طارق(125). علاوة على ذلك، هدفت سياسة السلطان إلى

حماية وحدة البلاد عبر التقليل من اتصالات المغاربة بالأجانب. وعليه، منعت التجارة الخارجية، ما عدا في طنجة والصويرة، حيث احتكر المخزن كل الرواجات عن طريق وساطة التجار اليهود (126). هكذا توقفت البحرية المغربية. لقد جسد ذلك، كما يرى جون لوي مبيج، "عودة للنزعة الداخلية". فباستثناء بعض المحاولات اليائسة لإحياء القرصنة كان المغرب قد انطوى على نفسه كلياً. يقول: "في الوقت الذي كانت فيه فرنسا تنهي للتدخل في الجزائر محطمة قطعاً التوازن السياسي بالحوض المتوسط الغربي، كان المغرب قد انغلق على نفسه أكثر من أي وقت مضى، على هامش قارة في بداية ثورتها الصناعية. فكل سنة مرت إلا وزانت من عزلته" (127).

والواقع أن التجارة بسلا كانت قد تداعت إلى الإختلال منذ نهاية القرن 18. في سنة 1733، كان حضور الإنجليز قويا جدا حيث توفرنا على ما يناهز مائة غرفة تجارية بالرباط وسلا وكانت عمليات الاستيراد والتصدير نشيطة جدا مع إنجلترا وهولندا على السواء. أما في نهاية القرن فقد تغير الوضع تماماً. ففي عام 1781 انتقل التجار الأوربيون، بأمر من السلطان، من سلا إلى الصويرة، بل حتى قنصل فرنسا، وهو آخر أوربي مقيم بالرباط، رحل إلى طنجة، حوالي 1797 (128).

وضعت التجارة البرية أيضاً. وعلى الرغم من صعوبة تحديد تبعات هذا الضعف، يبقى احتلال فرنسا للجزائر سنة 1830، بكل تأكيد، عاملاً أساسياً في هذا الشأن. ففي نهاية القرن 18 كانت تتطلق قوافل مكونة من مائة جمل من سلا سنوياً في اتجاه مصر عبر المدن الساحلية لشمال إفريقيا، متجرة في الذهب واللؤلؤ، والزنجفر والأثوبة والأقمشة والخشب المنقوش

وسلع أخرى. وقد شكلت الجزائر وقتئذ محطة هامة في طريق هذه القوافل. يشهد على ذلك الشارع المسمى هناك بـ "أهل سلا". وفي تونس، كان وصولها ثلاثة أسابيع قبل بداية شهر رمضان مناسبة لرواج تجاري هائل، كان يصل حجمه إلى 100.000 جنيه إسترليني. ثم كان التجار يكترون هناك قوارب لحمل ما تبقى من البضائع إلى الإسكندرية والشرق (129).

الأزمات : التمهيد الأوربي والصراع الداخلي :

يا السائلي على القرون تلتأش حمل ما فيه يدارة

الكسوة كسوة المسلمين والقلوب قلوب النصارى (130)

لم تخلف الأزمات السياسية، الناتجة عن ضعف السلطة المركزية، تأثيرا كبيرا على المدينة. فغالبا ما كانت تحل عبر قواعد وإجراءات تحكيمية دون المس ببنية المجتمع. وتبين أمثلة كثيرة آليات التدخل الرامية إلى فك التوترات. في عهد مولاي يزيد، الذي تميز بقلقل عديدة في مختلف أنحاء البلاد، تمررت قبائل الجيش بسبب عجز المخزن عن دفع مستحققاتها. سنة 1790 هاجمت قبيلة الصباح ضواحي الرباط واحتلت شالة. فكان رد فعل السلطان أن جمع عساكر تنتمي إلى قبائل أخرى وجعل على رأسها حاكم سلا، بوعزة القسطلي، فأغارت على الموقع المذكور ونهبته. فغضب أهل العدوتين من ذلك، وخافوا على أنفسهم من عيث هذه القبائل وحملوا القسطلي مسؤولية ما حدث. خمس سنوات بعد ذلك، استجاب مولاي سليمان لشكايتهم بتتحيية هذا الأخير وتعليقه بأحد أبواب سلا (131).

ومن جهة أخرى، كان مولاي يزيد غالبا ما يوجه مطالب الجند نحو يهود الحواضر. في فاس، مثلا، سنة 1790، طردوا اليهود من الملاح وهدموا منازلهم ومعابدهم. وقاموا باعتداءات

مماثلة في تطوان والرباط وسلا(132). وهناك رواية يتداولها يهود مدينة سلا، تقدم تفسيراً مغايراً لهذه الأحداث. ومفادها أن السلطان كان له حساب قديم مع اليهود، أيام والده، حيث لم يتمكن من اختطاف امرأة من طائفهم. لذلك اعتدى على كل الأحياء اليهودية بالمغرب لما أصبح سلطاناً. ومع ذلك، تشدد الرواية على الوضع الخاص ليهود العدوتين، والذي امتاز بترجيح الأسلوب السلمي. يشهد على ذلك تدخل حاكمي المدينتين لحماية بني إسرائيل مقابل أدائهم للسلطان 614.000 مقال.

لكن الاضطرابات التي عاشتها الرباط وسلا، خلال السنوات الأولى من حكم مولاي سليمان، أدت، في نهاية الأمر، إلى ترحيل اليهود عن نورهم وتفريقها على جيرانهم المسلمين. ففي عام 1805، انتقل يهود تطوان والرباط وسلا إلى أحياء جديدة بنيت خصيصاً لهم، والتي تعرف باسم "الملاح". وقد شمل هذا الإجراء في مدينة سلا، ما يقرب من 2000 شخص، أي ما يعادل 10% من ساكنة المدينة(133).

وتكمن أسباب نقل يهود العدوتين إلى أحياء خارج نواة المدينة، كما يراها ابن علي في الرواية التالية: "كان اليهود يسكنون وسط المسلمين من قديم، متحصنين بهم من ثورة البوادي عليهم [...] فسئموا مجاورتهم ومخالطتهم مع مخالفة الدين والطباع وعفونة اليهود وما جبلوا عليه من كراهة الإسلام والمسلمين. فاحتال بعض الحذاق من المجاورين لهم في السكنى وتربص [عند] باب الجامع المجاور للملاح القديم [...] حتى صلى الناس العشاء، وكانت الأيام أيام رمضان، فكسر قنينة خمر ببابه ونادى: "معشر الإسلام، هلموا، أنظروا ما يفعله اليهود بمساجدنا من إراقة الخمر وإفساد الصلاة علينا" فأعملت البينة

بذلك ورفعت لأمير المؤمنين مولانا سليمان، فأمر رحمه الله بأن ينقلوا إلى محل لا يجاور سكنى المسلمين، وبني لهم بدار الصنعة من سلا حارة، وبخارج الرباط حارة أخرى، وأراح الله المسلمين من سكنى اليهود بينهم. وكان ذلك سنة 1222هـ / 1807م. وهذا دال على علو همة أهل سلا" (134).

يبدو عزل يهود سلا أمراً صادراً عن السلطان أكثر مما هو نابع من الساكنة المسلمة. ومن جهة أخرى، يبين ابن علي كراهة اليهود وسهولة تدبيرها من طرف نوي النفوذ بالمدينة. والملاحظ أن تقلص دور يهود العدوتين في الوساطات التجارية في مرحلة القلاقل، جعل حمايتهم من طرف جيرانهم المسلمين عبئاً ثقيلاً. علاوة على ذلك، كان على هؤلاء أن يحموا أنفسهم من العساكر المتمردة. ويعزل اليهود في حي خاص بهم كان من السهل الدفاع عنهم. لم تكن مبادرة السلطان والسلويين نتيجة للفوضى أو حتى للاضطهاد. لقد كان المسلمون يعتبرون اليهود "أهل ذمة"، وكان قد ارتأى عدد من الحكام المغاربة أن أفضل وسيلة لحمايتهم هي جمعهم في حي منعزل، أي "الملاح" (135) الذي كان قد أنشأ بغاس منذ القرن 14. لكن، ظلت مدن أخرى وفيه للتعايش بين المسلمين واليهود زمناً طويلاً (136). وما نزوع سلا إلى نظام التفرقة إلا دليلاً على تقهقر المدينة في مجال التجارة وضعف الحماية الأمنية أمام خطر القبائل. في هذه الظروف، من اليهود من لبي نداء سيدي محمد بن عبد الله للرحيل إلى الصويرة والاستقرار بها، على الأقل أولئك الذين ظلوا يتمتعون بنفوذ اقتصادي، ومنهم من رفض مغادرة منزله وفضل بالمقابل اعتناق الإسلام للبقاء وسط المدينة (137). ومن المحتمل أن تكون بعض العائلات السلوية التي يعتقد أنها ذات

أصل يهودي، قد دخلت في دين الإسلام في هذه الفترة. عاشت المدينتان أوقاتا عصيبة . فالوباء الذي اجتاح المغرب سنة 1799 كان شديدا في الرباط ، وفي سلا أيضا، حيث عصف بحياة ثلثي السكان(138). ويخبرنا ابن علي في إحدى تراجمه عن القحط الذي أصاب سلا سنة 1816، والذي كان فظيحا لدرجة أن الناس صلوا صلاة الاستسقاء خمس موات(139). وضرب الوباء من جديد عام 1818. ويشير ظهير سلطاني، سنة 1824، إلى مدى دورية القحوط وعجز البوادي عن سد الحاجيات الغذائية للسكان والاضطرار إلى استيراد الحبوب من أوروبا. فقد عين السلطان من أهل العدوتين تاجرين كبيرين، هما السلاوي الحاج العربي معنينو والرباطي الزهراء للسهر على عملية الاستيراد. " كان الناس في ضيق شديد، زاده الاحتكار حدة. فكان على التجار الجدد بيع القمح المستورد بفائدة لا تتعدى درهما في المتقال الواحد، حتى يستطيع الخاص والعام شراء القمح بدون تمييز"(140).

وقبل ذلك بعامين، عند وفاة مولاي سليمان، كان قد وقع قحط، تعرضت سلا خلاله لتهديدات شديدة من طرف سكان القرى. فقد قطعوا الطرقات ونهبوا الزروع وسرقوا المواشي. كل ذلك وعامل المدينة في عجز تام. في هذه الظروف التي تشبه إلى حد كبير تلك التي أفرزت سلطة الزعيم عبد الحق فنيش، نظم أحمد زنيير سبل الدفاع عن سلا. كان هذا الرجل ذو مخالطة مع البدو وغوغاء الحاضرة الذين تمر عبرهم عملية إنتاج الزرع وترووجه. وكان بالوقت خصاص وغلاء. وكان قد حصل ذات يوم أن سلب أهل القرى قافلة في طريقها إلى المدينة، متاعا ودوابا. فلما بلغ الأمر العامل ولم يقدر على شيء

قام أحمد زنيبر بجمع مائتي رام من داخل سلا، وخرج بهم ليلا لمهاجمة الدوار الذي أتى منه اللصوص. فباغثوهم وطووا خيامهم وساقوهم إلى المقبرة المجاورة لسيدي ابن عاشر، داخل الأسوار وأجبروهم على النزول هناك. ثم أرسلوا لنويهم ليرجعوا ما سلبوه إذا هم أرادوا أن يطلق سراح الرهائن. فردوا المتاع المسلوب واستعاد الأعراب حريتهم. وحذروهم بقولهم: "إن عنتم عدنا". ويختم ابن علي هذه الرواية قائلا: "كانت تجري بين أهل سلا والقبائل المجاورة لها من هذا القبيل ما يقضي منه العجب. وفي هذا القدر كفاية" (141).

ثبات صورة:

لم تتغير إذا البنية السياسية لسلا ونظامها وتضامن أهلها بشكل جذري خلال الاضطرابات وتدهور الحياة الاقتصادية بالمدينة. كذلك، لم تفقد سلا صيتها العلمي الكبير. فقد قدم لنا ابن علي، بخصوص الربع الأول من القرن 19، سبع تراجم لعلماء أجلاء. أولهم الفقيه عبد السلام بن عبد الله حركات المتوفى عام 1805 والذي لا تزال مؤلفاته مخطوطة ببعض الخزانات العائلية بسلا (142). ويعد حركات من علماء المدينة وأعيانها. قرأ بفاس على مشايخ عصره، وأخذ الطريقة عن قطب زمانه، مولاي أحمد الصقلي. وله تأليف حسان عديدة في النوازل. وكان له اتصال كبير بالسلطان سيدي محمد بن عبد الله (143).

وأما آخر ترجمة يعرضها ابن علي حول هذه الفترة فهي للقاضي محمد بن أحمد الجريري الذي حضي باحترام الأجيال اللاحقة. وما الخصال المعهودة والمثالية التي يحصيها المؤرخ السلاوي في الترجمة هاته إلا دليلا على ذلك: "الفقيه العلامة القاضي الكبير المشارك الدراكة الشهير علم الأعيان وواحد

الجهابذة في الضبط والتحرير والإتقان. كان علامة دراكة مدرسا نافعا محققا في العلوم كلها، له اليد الطولى في البلاغة والفقه والحديث والتفسير. وكان يحفظ المقامات الحريرية حفظا متقنا وغيرها من مهمات المصنفات. وله خط رائق. ولما مات معاصره [الفقيه] محمد المير [واصل دروسه القرآنية] ثم لما [...] افتتح التفسير [...] بكى الحاضرون من شدة الفرح [...]. وكان يحضر مجلس درسه في التفسير الجم الغفير من أهل الرباط وسلا" (144).

استمرت صورة سلا كمركز للثقافة الإسلامية وكمدينة توارث أهلها المعرفة جيلا بعد جيل، حتى في الفترات العصبية قبل 1830 وبعدها بقرن من الزمن. وبموازاة مع اعتزازهم بإرثهم الثقافي، وهو أمر يسهل فهمه، ظلوا واثقين بتفوقهم العسكري، لكن دون مبرر. ويصعب تقييم هذه الثقة، خاصة ونحن نعلم طبيعة ميزان القوى بين بلدان شمال إفريقيا والاتساع المتزايد لأوربا كقوة استعمارية. ففي عام 1827، أمر السلطان مولاي عبد الرحمن من جديد رياس البحر في الرباط وسلا للخروج في القراصين ومواصلة الجهاد على طول السواحل المغربية والأوربية المجاورة. وكانت هذه المحاولة قد نجحت في إجبار بعض السفن النمساوية على النزول بمرسى أبي رقرق. لكن الرد كان سريعا. فقد قامت طرادات من النامسا، وعددها ستة، بحصار مرسى العرائش الذي كانت سفنه قد تورطت في العملية. فكانت نتيجة هذا الثأر أن قرر السلطان التخلي عن كل الهجمات البحرية. يقول الناصري بنوع من السذاجة في رؤيته للماضي: "صادف [ذلك] إبان قيام شوكة الفرنج ووفور عددهم وأدواتهم البحرية... وأكد ذلك استيلاء الفرنسيين على ثغر الجزائر" (145).

- 109 — الإتحاف الوجيز، ص 36.
- (110) — نفسه، ص: 36 - 37. — استعمل عتاد القصبة المخربة في تحصين أسوار المدينة كما انتقلت أحباسها إلى مسجد سيدي أحمد حجي.
- (111) — نفسه، ص 103، مدن المغرب وقيادته، ج 2، ص 92 وما تلاها.
- (112) — الاستقصا، طبعة القاهرة، ج 4، ص 81، 88 وما تلاها. يقول الناصري بخصوص مشرع الرملة أنها كانت مدينة عجيبة ذات منازل وقصبات، لا مثل لها في الحواضر الأخرى. ويذكر أحد اليهود، بالخاص، ما ترويه أديباتهم حول أهمية هذه المدينة باعتبارها مركزا كبيرا للثقافة اليهودية. فقد كان محبا لليهود ما بين رأس السنة ويوم الفدي، وقصدهم في ذلك جمع أغصان الشجر عند قبر أحد الرهانيين اليهود؟ ومعلوم أن سلا تحتضن خارج أسوارها على يمين باب الحجاز أو باب سيدي بوحاجة ضريح ولي مسلم، سيدي بوحاجة، المدعو أحيانا قاضي حاجة. ويقال أن زواره هم من المسلمين واليهود على السواء. وهو ترابط مدهش وإن كانت ظاهرة توفير نفس الولي من طرف الطائفتين معا، أمر مألوف بالمغرب، أنظر:
- L. Voinot, Pèlerinages Judéo-musulmans du Maroc, Paris 1948.
- (113) — الاستقصا، ج 4، ص 103 وما تلاها، الإتحاف الوجيز، ص 103. — يذكر ابن علي أشعارا كان قد نظمها زبير. يعر فيها عن حسرته لفراق أخوته وشيوخه، لأنه كان منغيا في الرباط بسبب ما عانته أسرته من محن على يد عبد الحق: "محنة أصابت قبيلته من عامل سلا". ن.م. ص 117.
- (114) مدن المغرب وقيادته، ج 1، ص 97. الاستقصا، ج 4، ص 103. يقول الناصري أنهم عينوا على رأس الطبخية في عدة مراسي ومنحت لهم دورا وأملاكا ومرتبات عالية، فاستعادوا الغنى والجاه في البلاد. وكان أحدهم قد أصبح عاملا للمدينة في عهد مولاي عبد الرحمن.
- (115) — مدن المغرب وقيادته، ج 1، ص 128.
- (116) — الاستقصا، ج 4، ص 128.
- (117) — نفسه، ص 99 وما تلاها.
- (118) — نفسه.
- (119) — تعد عائلة عواد من أهم العائلات السلاوية. ولا زال حفدة الأيمرال يحتفظون بهذا الظهور.
- C. Penz, Journal du Consulat général de France au Maroc (1767 - 85) - 120) casablanca; 1943, pp. 103, 126, 141.
- (121) — صور هذه الظواهر محفوظة بالخرزانة العامة في الرباط.
- (122) — الإتحاف الوجيز، ص 39.
- (123) — الضعيف، تاريخ الدولة السعيدة، مخطوط الخزانة العامة، الرباط رقم 666. — يذكر هذا المورخ، بخصوص نفس الفترة، أشخاص آخرين من سلا يديرون السفن.

- (124) — الإنحاف الوجيز، ص 39. — في الواقع كان قصف سلا سنة 1851 بالمدمعة فاجعة بالمدينة.
- (125) — ك. براون، ن.م. ص 38 وما تلاها.
- (126) — منع مرسوم صادر سنة 1816 الرعايا المسلمين من السفر إلى أوروبا وسمح بذلك لليهود فقط شريطة الذهاب لأجل التجارة. أنظر :
- Levé et P. Fournel (eds.) Les Traités du Maroc, Paris, 1904, I, p. 505.
- (127) — ج.ل. مبيج، ن.م.، ج 2، ص 33 - 35.
- (128) — مدن المغرب وقبائله، ج 1، ص 168 وما تلاها.
- (129) — M. Emerit, « A propos de la caravane de Salé », in Les Cahiers de Tunisie, n° 11, 1955, pp. 466 - 467.
- (130) — عن المصادر الدغينة... السلسلة الثانية، ج 2، ص 116، ص 1. — تنسب هذه القطعة الزجلية إلى الشاعر الشعبي الشهير سيدي عبد الرحمن المخدوب.
- (131) — H. Basset et E. Levi - Provençal, chella. Une nécropole mérinide, Paris 1923, p. 29.
- (132) — أنظر "إخبارية فاس" في هسبريس، 1934، ص 88.
- (133) — مدن المغرب وقبائله، ج 1، ص 102. — ناهز عدد اليهود القاطنين بالرباط وسلا في عهد مولاي يزيد 6000 نفس. أما في سلا وحدها، فقد وصل عددهم، عند مطلع القرن الحالي، إلى 2000 شخص من أصل 20000 نسمة.
- (134) — الإنحاف الوجيز، ص 40. — طلب ملتصق مؤرخ ب 15 - 5 - 1806، بحوي إمضاء إحدى وثلاثين شاهدا بالإضافة إلى القاضي محمد الهاشمي أطوي، بترحيل اليهود من الملاح القديم لتسبيهم في إهمال المسجد وتدنيسه، ويوجد عقد آخر بتاريخ 31 - 7 - 1807 يسمح بإقامة ملاح جديد. أنظر :
- J. Goulven, « Esquisse historique des mellahs de Rabat - Salé », in Bulletin de la Société de Géographie, V III, 1922, pp. 29 - 31.
- (135) — أنظر "الملاح"، موسوعة الإسلام، حيث يفسر كولان أصل هذه الكلمة التي غالبا ما تعرضت للتحريف في الكتابات المرتبطة بالمغرب. ويذكر أن أول حي يعرف بالملاح كان محلا قديما للملح بفاس. فالاسم لا علاقة له بالمعاني المحترقة لليهود، مثل "ملاحي الرؤوس".
- (136) — بالفعل لازال هذا الأمر قائما في صفرو إلى اليوم.
- (137) — حول الدليل اللساني لاهتداء اليهود إلى الإسلام، في هذه الفترة، أنظر :
- L. Brunot, Textes arabes de Rabat, Paris, 1931 (Introduction).
- (138) — J. Caillé, la petites histoire de Rabat, Casablanca, s.d., p. 82.
- (139) — الإنحاف الوجيز، ص 129.

- (140) — مجموعة الساسي ، خ.ع. الرباط.
- (141) — الإنحاف الوجيز، ص 38 وما تلاها
- (142) — لقد تمكنت من الاطلاع على بعض هذه الأعمال وخصوصا الفتاوى الموجودة بجزانسة عبد الله الصبيحي.
- (143) — الإنحاف الوجيز ، ص 124 .
- (144) — نفسه، ص 130 وما تلاها.
- (145) — الاستقصا ، ج 4 ، ص 183 - 184 .

خاتمة

المظهر التاريخي لسيا

يدفعنا هذا الموجز التاريخي إلى التساؤل حول السمات العامة والثابتة والمتراكمة لمدينة سلا وماضيها؟ أولاً، موقعها الساحلي الملائم. فهي تتوفر على مرسى جيد يقع عند التقاء المحيط الأطلسي بمصب نهر أبي رقرق. وعليه، شكلت مركزاً ملاحياً للتجارة المحيطية، تبادل فيه التجار المحليون وأيضاً القادمون من دول ومدن البحر الأبيض المتوسط وشمال الأطلسي، المنتجات الحرفية والمواد الخام. والواقع أن للمراسي صفات مميزة. لقد نعتها فرناند بروديل بملقأى البر والبحر. ومن ثم، تكتسب أهمية بالغة. فهي تلتهم ما يرد من السلع، تجمعها وتوزعها(146).

تمتد الطرق التجارية، من سلا وإليها، حتى إلى السودان الغربي والبحر الأبيض المتوسط، مروراً بشمال إفريقيا. فقد أصبحت المدينة، خلال المرحلة الإسلامية، سوقاً برية ومرسى في نفس الوقت، معتمدة في اقتصادها على التجارة أي الاستيراد والتصدير، ومداخل الجباية والرساميل. لقد شهد المؤرخون الذين زاروها، من القرن 12 إلى 17، على رخاء كبير: رواج نقدي، غنى، رغد عيش. ويتصل ما وصفوه من رفاهية وحضارة زاهية بالتخصص الهائل للصنائع وتعددتها ومهارة حرفييها. لقد اعتبر ابن خلدون، في القرن 14، انطلاقاً من تجربته الخاصة، وهو يتحدث عن معاش الحاضرة، أن السترف وتخصص الصنائع عامل مميز بين المدينة والبادية. برأيه، يقوم التمدن على أساس تعدد الكماليات ونماء الحرف وأثرهما على رفاهية الناس(147).

كذلك، استقطبت سلا نازحين جدد: البربر من مختلف أنحاء شمال إفريقيا القبائل العربية المجاورة، اليهود وأهل

الأندلس والمدن المغاربية. لقد اشتهرت المدينة، منذ وقت مبكر، بجمعها بين مقومات الحضارة والبداءة. وتعكس حوماتها الأصول المتباينة للسكان. فالقادمون من البادية واصلوا العمل في الفلاحة لتوفر حدائق متعددة وأحواز ذات مراعي وحقول خصبة.

ويفسر هذا الاستقطاب بعامل آخر، ولو أنه غير ملموس . فقد كانت المدينة تخمنا منذ العهد الروماني. وفي المرحلة الإسلامية، خلال القرون الأولى على الأقل، كان حوض أبي رقرق رباطا للجهاد. وفي وقت لاحق، تأسست مدينة الرباط لتعبئة الجنود من أجل فتح بإسبانيا. وبعد ذلك، استقر القراصنة في الجمهوريات الثلاث للوادي ونظموا هجمات في أعالي البحار وسواحل أوربا بنفس الروح الجهادية. وفي القرن 17 كانت سلا المدينة الساحلية الوحيدة الخارجة عن قبضة الإسبان والبرطقيز والقاعدة الحربية للدفاع عن البلاد، تحت زعامة المجاهد والمحارب الشهير العياشي.

وبالعلاقة مع هذه السمة العسكرية، اشتهرت سلا كمقصد للصلحاء. فقد كانت الحرب جهادا. علينا أن لا ننسى أن الرباط لم يكن حامية للعساكر فقط، بل زاوية أيضا، أي مكانا للعبادة والزهد. كانت سلا تعتبر قبلة للأولياء والعلماء. فقد كان أولياؤها الأوائل نوو علم وتقوى. كانوا صلحاء، يتبرك بهم الناس ويأخذون المعرفة عليهم. فقد تتلمذ العياشي، وهو من أبرز الأولياء المجاهدين وأشهرهم على يد الشيخ، الولي الصالح سيدي عبد الله بن حسون، الذي قصد سلا بحثا عن السكينة(148). لقد رأينا كيف قدم الشيخ إلى المدينة، كيف استقبله صلحاؤها أجمعين، الأحياء منهم والأموات، كما تقول الأسطورة، وكيف

أقنعهم ببركته الخاصة لينضاف إليهم ، بل وليترأسهم. وأسهم العظماء الذين أقاموا بالمدينة في شهرتها. فقد فضل السلاطين الإقامة بها أو بالرباط، صيفا، وشيدوا هناك مآثر عديدة : مدرسات، مساجد، زوايا وأضرحة، وخذ الناس ذاكرة الصلحاء واختلقوا سمعتهم بتحبيس الأملاك لأجل بناء المقابر وصيانتها، وتنظيم المواسم للتبرك بهم. لقد أشترك أهل سلا على نحو فعلي في ابتكار تاريخهم الملحمي الخاص وصورتهم التاريخية.

لم تشتهر سلا فقط بساداتها، بل أيضا بإشعاعها العلمي والديني. فقد قصدها الطلاب للأخذ عن شيوخ كبار تعاقبوا بها جيلا بعد جيل. فكانت مدينة للعلم والفنادق والمواسم والكتب، كما وكيفا، وملتقى للعلماء والأحبة. لقد مثلت بحق مركزا دينيا وثقافيا. فقد شهد كل جيل فضلاء وفقهاء، وكان المعرفة تتحدر من سلالات معينة بالمدينة.

لقد مثل الإحساس بالنفوق في أمور الجهاد والتقوى والعلم والأخلاق سمة بارزة في الصورة التي كونها السلاويون عن أنفسهم. وشددت الأسطورة المؤسسة للمدينة من طرف الشيخ الأندلسي ضمنيا على هوية سلا كحاضرة إسلامية ذات ثقافة راقية. لقد اعتبر الناس حفته، الذين لازلوا على قيد الحياة إلى اليوم وصلحاء آخرين، بيت مجد ووقار. إنه المثال : الانتماء إلى عائلة عريقة وفاضلة أبا عن جد. وقياسا على ذلك، نظرت المدينة إلى ساكنتها كعائلة واحدة "أهل سلا"، الذين لازلوا يمتلكون صفات الشيخ.

وتجانس الرؤية التاريخية للمدينة وأهلها، سواء في النظرة الذاتية لهؤلاء أو في نظرة الآخرين إليهم، اللائمين منهم

والممجدين. لقد رفضوا في القرن 17 استقبال المهاجرين الأندلسيين، لافتقادهم مؤهلات الإقامة والاندماج. واعتقدوا أنهم أكثر تشبعا بالإسلام من جيرانهم. وهو موقف مدحه البعض وأعباه البعض الآخر، لإفراطه الروحي. المهم من هذا كله هو وضوح صورة شخصية المدينة، مما يجعل فهمنا مقبولا من طرف أهل المدينة وباقي الملاحظين.

لقد فسرنا أهم الأحداث التاريخية في حياة المدينة انطلاقا من هذه الصورة: الحرية والسيادة، الوحدة والتوافق، الشهامة والاعتزاز، التقوى والخلق. إنها صورة تخدم أغراضا محددة: تأمين امتيازات السلاويين الاقتصادية وأدوارهم السياسية. وموازية مع هذه الصورة وتفاعلاتها التاريخية، أدرك أهل سلا على نحو عملي أن التعاون مع السلطة المركزية والامتثال لها هو الكفيل بضمان الأمن والاستقرار.

(146) — ف. بروديل، ن.م.، ص 260 وما تلاها.

(147) — مقدمة ابن خلدون، طبعة لندن، 1967، ص 263 وما تلاها. — وحول أفكار ابن خلدون بخصوص

المدينة. أنظر: M. Mahdi, Ibn Khaldun's philosophy of History, Chicago, 1964, pp.209ff.

(148) — حسب ابن خلدون تعتبر السكنية الوجه الثاني بعد الترف في قيام المدينة.

الملحق الأول

ملاحظات حول المؤرخين السلاويين

استندت هذه الدراسة من حيث المصادر المكتوبة على الأعمال التاريخية لمؤرخين سلاويين، أحمد بن خالد النصاصري ومحمد بن علي الدكالي، اللذين جسدا، وبجلاء سواء على مستوى التأليف أو الحياة الخاصة، أهم مظاهر استمرارية التمثل الذاتي لدى أهل سلا في فترة غلب عليها الاضطراب والتغيير. لقد أجبرتنا قلة المادة المصدرية على الاعتماد، بشكل واسع على أخبار هذين المؤرخين ونظرتهما. فقد كانا من أنبل رجالات المدينة وأوفرها نصيبا في علوم الدين وأسلاك المخزن. لذلك يبدو صلب هذا البحث متأثرا بأفضلية هذه الشريحة من الساكنة. وعليه، يجب الأخذ بعين الاعتبار ما تعكسه هذه المصادر من عقلية لمنقفي القرن التاسع عشر ومثال لدى نخبة الحواضر وتصورهم للعالم وإحساسهم. غير أنني تعاملت في كل مراحل هذه الدراسة بأسلوب نقدي مع مختلف النصوص وبينت كيف أن البنية الاجتماعية والقيم الثقافية للمدينة لم تكونا متجانستين بالشكل الذي أراد إظهاره هذان المؤرخان. لذلك ارتأيت في ختم هذا الموجز تقديم بعض المعطيات الإضافية حولهما.

ألف أحمد بن خالد الناصري مختصرا تاريخيا تحت عنوان "كتاب الاستقصا في أخبار دول المغرب الأقصى"، نشره بالقاهرة عام 1894 على نفقته الخاصة. أما الطبعة الثانية المنقحة والمسبوقه بترجمة المؤلف، فقد نشرها أبناؤه، محمد وجعفر في تسعة مجلدات بالدار البيضاء سنوات 1954 - 1956. وقد ترجمت أجزاء من هذا العمل إلى الفرنسية بالأرشيفات المغربية.

لقد سبق لي أن قدمت نبذة عن حياة المؤلف في مقالة خاصة (149)، اعتمدت فيها على مادة أبناءه وأطروحة ليفي بروفانسال، "مؤرخو الشرفاء"، الصادرة عام 1920. فقد تحدث هذا

الأخير عن عمل الناصري وحل بإسهاب أسلوبه ومصادره وقيمته التاريخية، موضحاً أن المؤرخ سار على نهج المؤرخين الأقدمين، لكنه في نفس الوقت أفلح في جمع أخبار التاريخ السياسي للمغرب من إخباريات وتراجم متعددة في نص واحد. غير أن مادته حول سلا شكلت مونوغرافية داخل التاريخ العام حيث غالباً ما اشتملت على معلومات جديدة، سواء الكتابية منها أو الشفهية (150). وللناصرى أيضاً تآليف هامة عديدة حول المرينيين والطرق الدينية في القرن التاسع عشر، لاتزال مخطوطة ومحفوظة في خزنة أبنائه. والرجاء أن توضع قريباً بيد الباحثين في تاريخ المغرب وأن تتجز دراسة هائلة حول حيلة هذا المؤرخ الكبير وعمله.

المؤرخ الثاني هو محمد بن علي الدكالي الذي تتلمذ على يد الناصري وترجم له (151). لقد خلف تآليفات مهمة حول سلا ومواضيع أخرى، لا تزال كلها مخطوطة، لكن جردها الكامل متوفر في بيان تابيني منشور بالعدد 647 من جريدة "السعادة" لفاتح غشت 1945. ولد ابن علي بسلا عام 1868 حيث تلقى تربية دينية تقليدية على يد فطاحلة الوقت، أمثال إبراهيم بن الفقيه الجريري وعبد الله بن خضراء وأحمد بن خالد الناصري وأحمد بن الفقيه الجريري. وتابع سنة 1885 دراساته بجامع القرويين بفاس تحت إمرة جعفر الكتاني وفقهاء آخرين. ثم عاد لسلا عام 1890 وشرع في التدريس بالمؤسسات القرآنية. بعد ذلك، بسبع سنوات، صار عدلاً بسلا ثم بطنجة. وعند رجوعه إلى مسقط رأسه سنة 1902 اشغل كاتباً في الباشوية لدى عبد الله بن سعيد والطيب الصبيحي وفي خزينة المخزن لدى عبد الهادي زنيبر بمراكش. وابتداءً من عام 1910 انتقل للعمل في السلك المخزني

في فاس والرباط على عهدي مولاي عبد الحفيظ ومولاي يوسف. وإيان الحماية أصبح ابن علي مؤرخا رسميا للقصر وتعددت تأليفه.

إن الثناء على ابن علي يقتضي الإشارة إلى ما يقرب من خمسة عشر مؤلفا، أهمها ذلك العمل المكون من أربعة أجزاء حول ساكنتي سلا والرباط، "أدواح البستان في أخبار العدوتين وما درج بهما من الأعيان"، والمعروف أيضا تحت عنوان "الحدائق". وعلى الرغم من جهودي في التتقيب عن هذا الكتاب فإنني لم أعثر عليه. لكن مخطوطا آخر محفوظا بالخزانة العامة بالرباط، ضمن المجموعة الكتانية تحت رقم 1264، يضم بعض النقايد المرتبطة بهذا العمل.

ونجد من بين أعمال ابن علي، المعروفة والمعتمدة في هذه

الدراسة، ما يلي :

1 - الإتحاف الوجيز بأخبار العدوتين، 1895، 131 صفحة. وتوجد منه ثلاث نسخ بالخزانة العامة بالرباط تحت أرقام د 1320، د 20 وك 2333 (152). وقد اعتمدت النسخة الأولى بالأساس، لوضوحها النسبي. لقد صرح ابن علي في إحدى رسائله أن الكتاب يتضمن الخبر عن عدوتي سلا و"وصفا جغرافيا علميا أخلاقيا تاريخيا مما يتعلق بمساجدها ومدارسها وزواياها وأسوارها وأبراجها وأسواقها ومعارف أهلها، وما يحسنون من الصنائع والحرف والمهن، وأخلاقهم وعواندهم وتراجم كثير من علمائها وصلحاتها وملوكها"، وأنه "[أهداه] لمولاي عبد العزيز سنة 1313 موافق 1895 فاستحسنه و[أجازه] عليه بمائة ريال وكسوة وظهير بالتوقيع والاحترام والتتويه" (153). في هذا العمل، اعتمد ابن علي، بشكل واسع، على ما وفرته له

مادته الخاصة وأيضا ما منحه إياه التراكمات المعرفية للمدينة المحفوظة في مستندات معاصريه. وعلى الرغم مما يظهره المؤلف من مثالية إزاء الماضي وتقليدية في الكتابة فإنه يقدم، مع ذلك، أخبارا كثيرة حول الحياة بسلا في القرن التاسع عشر ويظل مصدرا دائما الفائدة.

2 - إتحاق أشرف الملا ببعض أخبار الرباط وسلا، المتوفر في نسختين بالخزانة العامة بالرباط تحت رقمي د 11 وك 466. وهو عبارة عن أرجوزة مكونة من 2810 بيتا في 134 صفحة ألفها سنة 1912، ذلك الشعر الشعبي الذي نظم فيه النحويون والفقهاء والمؤرخون (154). ورغم أن الكتاب أقل أهمية من سابقه من الوجهة الإخبارية فإنه يمنح إمكانية التعرف على مستوى إبداع المؤلف وأفكاره. لقد بين ابن علي في ختام أرجوزته أنه قد نظمها كرد على الوزير ابن الخطيب، رجل القرن 14، الذي كان قد أساء لمدينة سلا في معرض مقارنته إياها بمالقة، منتهكا بذلك، برأي المؤلف، آداب السلوك، لأنه كان يسعى فقط لإرضاء عاهلي الأندلس. من هنا جاءت فكرة هذه الأرجوزة لتنفيذ أقوال ابن الخطيب وإظهار الوجه الحقيقي للمدينة. ومن الأعمال الأخرى لابن علي:

- تأليف حول شالة، "الدرة اليتيمة في أخبار شالة الحديثة والقديمة"، بإيعاز من القبطان الفرنسي دوزي. وهو عمل كان قد اطلع عليه، بحسب تقييد تآبينى، المقيم العام ليوطي الذي استحسنته وأمر بنقله إلى الفرنسية.

- تأليف في النحو العربي.

- تأليف في تاريخ سك النقود بالمغرب.

- أخبار جامع حسان.

— رسالة في تاريخ المغرب القديم والحديث.

— رسالة في أهل العدوتين.

— تأليف في الحسبة في الإسلام وأحوال المحتسب مع أهل الحرف والصنائع والمهن والتجار والباعة وسرد أسماء أصحابها.

— تأليف في أحوال اليهود بالمغرب قديما وحديثا.

— تأليف في بني وطاس.

— مقامة أدبية من 260 بيتا.

ونود في نهاية هذه النبذة تقديم مقطع من أرجوزة كان قد نظمها ابن علي سنة 1912 وأهداها للسلطان مولاي يوسف. وهي أبيات ذات أهمية خاصة نظرا لما تعكسه من نظرات تاريخية لنموذج المتقف التقليدي. إنه المقطع الذي توجد على حاشيته عبارة "مدنية أوربا في عصرنا الحاضر":

| | |
|--------------------------|--------------------------|
| قال المترجمو ماكم فأنحة | ليست بحشوة ولا بزأنحة |
| تبصرة لمن يريد أن يرى | أحوال خير مسلم من الوري |
| فإن هذا الجيل جيل معرفة | بحالة الدنيا معان صفة |
| وأهم الغريب أحكموا العمل | وشاركوا الناس بما قل وجل |
| وامتلأوا بما بدا مقدره | ومحروا من البسيط أوفره |
| وأتقنوا معرفة الأشياء | وسيروا العمران في نماء |
| وشبروا أخلق جل الناس | بكل قطر حنون ما تناسى |
| وأطلقوا العقل من العقال | وسرحوا الضر بكل حال |
| واتسموا بالعلم والعرفان | وبالتمسر بكل شأن |
| وأحرزوا سبق بلا نكران | إذ حصلوا معارفهم العمران |
| فوصلوا الشاسع من أقطار | وخاطبوا بالبرق والأوتار |

وسبحوا بالبحر والفضاء
واحتشفتوا بخرايب الأضواء
وملأوا أزمة التدبير
ولومضى الشرق حسير الغرب
لكنه أمل ما قد حولا
ألم يك الشرق محجيب الحال
ألم يك الشرق مناط المجد
ألم يكن يحير أمر العالم
ألم تكن معارضة الإسلام
ألم تكن حستور أسباب الرقي
فقل على الأجيال قول حق
ومن توانى قد أخاع المجد

وصبطوا تحت طباق الماء
واحتربوا بمجانج الإمان
وصيطروا سيطرة الخير
لأحرز الفوز بكل صوبه
من المعارضه فظل محاطا
فبي العلم والقوة والمال
فبي كل ما قد ناله مجد
شرقاً وغرباً برزيع المم
معهودة لسانر الأقوام
وشرقاً قد حل فوق المشرق
من جد سار في معالي السبق
وأعمل النفس فجاز الحد (155)



149) – K. BROWN, Portrait d'un savant marocain au XIX^e siècle, in BESM. , octobre 1971.

(150) — أنظر تمهيدا ، ص 366 – 367. أما بخصوص تقييم ليفي بروفانسال لعمل الناصري، راجع ص 350 – 368 ، 396 – 399. وعن هفوات كتاب الاستقصاء، أنظر :

R. RICARD, Les ravages de l'Istiqsa Hesperis, 1956, pp. 201/20

(151) — "تخليد المآثر وتشبيد المفاخر بترجمة الشيخ شهاب الدين بن ناصر؛، أورده ليفي بروفانسال، ن.م.ص 351، لكنني لم أتوقف في العثور عليه.

(152) — يتعلق الأمر بخزانة عبد الحي الكتاني المحفوظة بالوثائق العامة بالرباط.

(153) — أنظر عبد السلام بن سوادة، دليل مورخ المغرب الأقصى، الطبعة الثانية، الدار البيضاء، 1960 ، ج 1 ،

ص28. — ويبدو تاريخ 1895 مبكرا جدا. فسن الدكالي ، في هذا الوقت، لم يكن يتجاوز فعلا السابعة عشرة، ومة إشارة بالمخطوط تدل على أن تاريخ الانتهاء من كتابته كان حوالي 1907 ، أواخر العهد العزيري. (154) — أنظر ليفي بروفانسال، ن.م. ص: 42: "خلف لنا المخيال الخصب لشعراء الانتحال الذين اعتقدوا كتابة التاريخ عبر النظم، كمَّا كبيرا من هذه الإنتاجات. لكنها ، من حسن الحظ ، قصيرة في مجملها، لأنها فقرة المحتوى والشكل".

(155) — إتخاف أشرف الملا...، ص: 85 - 86.

الملحق الثاني

شالة - سلا - الرباط

مرحلة ما قبل الإسلام

إلى حروف ش - ل - ه، قد تقرأ حسب نطق فينيقي مفترض سلا أو شالة (160). وقد أكد ليفي برفانسال أن كلمة سلا الرومانية هي تحريف لاتيني لشالة الفينيقية، طبقاً لأمثلة عدة حول تلتين أسماء الأماكن الفينيقية حيث تصير الشين سينا، وأن الأهالي قد حافظوا في لسانهم على التسمية الأصلية لشالة. وفيما بعد، تبنى العرب الصيغتين معاً، تعاوضياً، إلى حدود القرن الثاني عشر. وابتداءً من هذا التاريخ بدأ الفصل في استعمال الكلمتين للتمييز بين الموقع الروماني القديم والمدينة المسلمة الجديدة المطلة على المحيط. واكتفى المؤرخون العرب، على حيرتهم من نعت الموقع وتحديد زمن تأسيسه، بترديد ما نقوله الأساطير من أن الاسم ينحدر من سلا ابن حام ابن نوح، أو أن المدينة قد بناها الإسكندر الأكبر أو أفريقش الحميري، أو أنها أقدم موقع أسسه البربر بالمغرب. ومن جهته، حصر الناصري قوله في نسب تأسيس المدن القديمة كسبته وطنجة وسلا وشالة ووليلي إلى الإفرنج أو من سبقوهم كالقرطاجيين. أما اليهود فيحيلون سلا على مدينة سليمان الحكيم. وختاماً، ثمة فرضية تتصل بأشتقاق أمازيغي. فـ "سلا" قد تدل على "الصخر" في إشارة إلى طبغرافية شالة والأوداية (161).

لقد كانت سلا كولونيا الرومانية أكثر سعة من شالة بما في ذلك المستوطنات المحاذية للنهر. أما على الضفة اليمنى بجانب الوادي، في المكان المسمى عين أسمير، فيوجد خراب لمدينة قديمة نعتها المهتمون الفرنسيون خلال العشر سنوات الأولى من الحماية، استناداً إلى شهادة المؤرخ السللاوي ابن علي، كودس. وهي مدينة يُعتقد أن أراضيها كانت تتصل بالموقع الحالي لسلا حيث يدفن الناس فيها موتاهم. وبحسب هذا

المصدر، قاومت كودس الرومان خلال القرن الثاني ق.م واستعملت فيما بعد كمخزن للحبوب، ثم دمرت في وقت لاحق من طرف الوندال(162).

ونجد أيضا من المؤشرات الدالة على الاستيطان ما قبل الإسلامي للضفة اليمنى للوادي، بمدينة سلا أو بالقرب منها، ما كشفت عنه مؤخرا الصور الجوية بخصوص مقطع لطريق رومانية، شرق المدينة بالجهة الشمالية للنهر. وبناءا على هذه الصور والنقود الرومانية التي تعود إلى ما بين القرنين الثاني والرابع الميلاديين وبقيامعاصر الخمر المكتشفة بسلا وضواحيها يمكن القول بوجود شكل ما من الاستيطان الروماني بالمنطقة. وتوحي أيضا التحاليل الإضافية للصور الجوية أن الطريق الرئيسية الشمالية - الجنوبية لسلا وسورها الشرقي قد يكونان امتدادا للحزام الروماني. لذلك، من المحتمل أن يكون الاستيطان الروماني المبكر قد حدد موقع المدينة الإسلامية واتجاهها(163).

والواقع، لا يزال تاريخ هذه المنطقة من حوض أبي رقرق خلال المرحلة الممتدة ما بين تفكك المستوطنات الرومانية والفتح الإسلامي، غامضا(164). فالهجمات الوندالية خربت كل الآثار الرومانية بالمنطقة، باستثناء شالة. ومهما يكن، يظل الصمت مخيما على كتابات المؤرخين حول مرحلة ما بين الغزو الوندالي في القرن الخامس ومجيء الإسلام قرنين بعد ذلك.

- (156) — تنتمي الأحافير البشرية القديمة المكتشفة إلى الإنسان ما قبل النياندرثالي. راجع :
H.V. VALLOIS, L'homme de Rabat, in Bulletin d'Ar néologie Marocaine, V.III, 1958,
pp. 87 – 92.
- 157) – G.CHOUBERT et J. ROCHE , Note sur les industries anciennes du plateau de
Sslé,
in B.A.M., V.I, 1956 , pp. 9 – 38.
- (158) — لأحدني مدينة للسيد بوب، مدير الحفريات التابعة لمتحف الآثار بالرباط لما قدمه لي من معلومات.
أنظر مقالته الأخيرة : — Fouilles archéologiques à Sala, Hesperis, VII, 1966, 23 –
» 32، وأيضا :
- J. CARCOPINO , Le Maroc antique, Paris, 1944, p.
220
المزيد من المعطيات حول المواد المنشورة
- أنظر : "المغرب" في سلسلة « Les Guides Bleus » ، بايز ، 1966 .
- 159) – R. ROGET ,Le Maroc chey les auteurs anciens, Paris, 1924, p. 30.
- 160) – M. TISSOT , Recherches sur la géographie comparée de la Maurétanie
Tingitaine, in Mémoires présentés par divers savants à l'académie des inscriptions et
belles – lettres, Paris, 1878, p. 231 , n°1.
- 161) – E. LEVI – PROVENCAL et H. BASSET, Chella : Une nécropole mérinide,
Hesperis, 1922, 5 , n. 1 , Ibn Said Gharnati, in Extraits inédits relatifs au Maghreb, éd .
E. FAGNAN, Constantine, 1900, p. 14 , ZAYANI, in Une description géographique du
Maroc d'Az – Zayany, Trad. G. SALMON , A.M. , 1906, p. 451 – 452 , Istiqsa, éd.
Caire, III, p. 330, J. GOULVEN, Notes sur les origines anciennes des Usraélites au
Maroc, Hesperis, 1921 , p. 329.
- وأشكر الأستاذ جيفرتز على الشروحات التي قدمها لي بخصوص تعقيدات الفينيقيّة، وأيضا
الأستاذ كولان على إحياءاته المتصلة بالأمازيغيّة.
- 162) – M. De PERIGNY , Au Maroc, Casablanca, Rabat, Meknès, Paris , 1919, p. 97.
أنظر أيضا مدن المغرب وقبائله، I ، 25.
- 163) – R. THOUVENOT , Les vestiges de la route romaine de Salé à l'O.
وأود هنا أن أشكر الأستاذ محمد الناصري على ملاحظاته بخصوص الحزام الروماني
أيضا على اهتمامه بأبحاثي ومساعدته لي.
- 164) – C.A. JULIEN , Histoire de l'Afrique du Nord, Paris , 1961, t.1 , p. 233 et s.

بيبليوغرافيا

ا - مخطوطات

1 - مستندات عربية :

أ . وثائق أسرية:

- ابن سعيد (العربي)، المراسلات الرسمية لمحمد وعبد الله بن سعيد
1885-1925.

- الصبيحي (عبد الله)، أوراق محمد الساسي.

- عواد (عبد السلام)، مراسلات وتقايد محمد عواد، 1890 - 1930.

ب - الوثائق العامة - الرباط.

- ابن علي الذكالي (محمد)، إتحاف أشرف الملا ببعض أخبار الرباط
وسلا، 11 د، ك 466.

- ابن علي الذكالي (محمد)، كتاب الإتحاف الوجيز بأخبار العدوتين
لمولاي عبد العزيز، 1320 د، 42 ك، 2333.

- ابن علي الذكالي (محمد)، الكناشة ك 1264 .

- الساسي (محمد)، مجموعة وثائق (ميكروفيلم).

- الضعيف، تاريخ الضعيف، رقم 666.

ج - وثائق المحافظة العقارية - الرباط

- سجلات أملاك سلا.

د - الوثائق الملكية - الرباط

- الشؤون الخارجية، رقم 9 "الغارات"

هـ - الخزائن الملكية

- حوالات احباس سلا (1885) رقم 612.

2 - مستندات أوروبية - باريس.

1. Centres de Hautes Etudes Administratives sur l'Afrique et l'Asie
Modernes (C.H.E.A.M.).

Abbadie, M. - Rôle joué par Salé dans l'évolution de l'opinion marocaine
au cours de ces dernières années (1937), Ms. N°340.

- Forichon, J. – Commission du plan d'urbanisme de Rabat et Salé : Notes sur la densité urbaine de Rabat et Salé, Ms. In Vol. LIV, No 1401 (ca. 1947)
- 2 – Archives de l'Alliance Israélite Universelle
Correspondence Relating to Salé, Dossier No. IV. B (Salé).
- 3 – Archives de la Marine .
Maroc (1881 – 1893), Schlumberger, « Notice sur la ville de Salé », No. BB 4, 2458, Dossier K, pp. 22 – 24.
- 4 – Archives du Ministère de la Guerre
Maroc, Serie C, Carton I.
- 5 – Archives Nationales
Maroc, Serie Marine , BB 4 , 1026, M – 20.
- Calderon, S. – Manuel de l'officier dans l'empire du Maroc ou tableau géographique, statistique, historique de ce pays, Ms. Translation from the Spanish édition of 1844 by L. Darmois, May, 1844.

II. مطبوعات

1 – أعمال عربية :

- ابن أبي زرع ، الأندلس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، نشر بوميبي، 1860.
- ابن حوقل، كتاب صورة الأرض، نشر كرامرز وفييت ، باريز، 1964.
- ابن خلدون، المقدمة، بيروت ، 1961.
- ابن خلدون، كتاب العبر ، نشر دوسلان ، الجزائر ، 1847 – 1851.
- ابن زيدان، إتحاف اعلام الناس بجمال أخبار حاضرة مكناس، 5 مجلدات، الرباط ، 1929.
- ابن سودة، دليل مؤرخ المغرب الأقصى ، الدار البيضاء، 1960.
- ابن شريفة، أسرة بني عشرة ، مجلة تطوان، ع 10 ، 1965.
- ابن عذارى، البيان المغرب ، نشر فانيان، الجزائر ، 1901 – 1904.
- البكري، كتاب المغرب في ذكر إفريقيا والمغرب، نشر دوسلان الجزائر 1911 – 1913.
- التادلي (يوسف)، التشوف إلى رجال التصوف، نشر فور، الرباط 1958.
- حجي (محمد)، الزاوية الديلاتية، الرباط ، 1964.
- العبادي ، مشاهدات لسان الدين بن الخطيب في بلاد المغرب والأندلس

الإسكندرية، 1958.

— القادري (محمد بن الطيب)، نشر المثاني لأهل القرن الحادي عشر والثاني، مجلدان، فاس، 1892، نشر غراي في "الأرشيفات المغربية" ج 21 1921.

— مجهول، تاريخ الدولة السعيدية، نشر كولان، الرباط، 1934.

— مجهول، كتاب الاستقصا في عجائب الأمصار، نشر سعد زغلول عبد الحميد، القاهرة، 1958.

— الناصري (أحمد بن خالد)، كتاب الاستقصا في أخبار المغرب الأقصى، 4 مجلدات، القاهرة، 1894، طبعة ثانية، 9 مجلدات، الدار البيضاء، 1954 - 1956.

2 - أعمال أجنبية:

Abbou, I. - *Musulmans, Andalous et Judéo-Espagnols*, Casablanca, 1953.

Abun-Nasr, J. - « The Salafiyya Movement in Morocco », in *St. Antony's Papers*, No. 16, *Middle Eastern Affairs*, No. 3, London, 1963.

Anon. - « Notions de pédagogie musulmane », trans. By M. Ben Cheneb in *Revue Africaine*, XLI (1897).

Ayache, G. - « La question des archives historiques marocaines », in *Hespéris-Tamuda*, II (1961).

- « L'utilisation et L'apport des archives historiques marocaines », in *Hespéris-Tamuda*, VII (1966).

Aubin, E. - *Le Maroc d'aujourd'hui*, Paris, 1908.

Balthorpe, J. - « The Streights Voyage », in *Hespéris*, IV (1929).

Baretta, B. - « La toma de Salé en tiempos de Alphonso El Sabio », in *Al Andalus*, VIII (1943).

Beauclerk, G. - *Journey to Morocco*, London, 1828.

Bel, A. - *La religion musulmane en Berbérie: Esquisse d'histoire et de sociologie Religieuses*, I, Paris, 1938.

- « Quelques rites pour obtenir la pluie en temps de sécheresse chez les musulmans maghrébins », in *Recueil de Mémoires et de textes*, XIV, Congrès des orientalistes, Algiers, 1905.

Berque, J. - *Le Maghreb entre les deux guerres*, Paris, 1962. English edition, *The Maghreb between the two wars*, London, 1967.

- « Medinas, villeneuves et bidonvilles », in *Les Cahiers de Tunisie*, No. 21 - 22 (1959).

- « Quelques perspectives d'une sociologie de la décolonisation », in *Les Cahiers de Sociologie*, No. 1 (1965).

- « Les débuts réformisme religieux au Maroc », in Etudes d'Orientalisme dédiées à la mémoire de Lévi-Provençal, II, Paris, 1962.
 - « Problèmes initiaux de la sociologie juridique en Afrique du Nord », in-Studia Islamica, I (1953).
 - And G. H. Bousquet.-« La criée publique à Fès : Etudes concrète d'un marché »,in Revue d'Economie Politique, LIV-LV (1940-45).
 - « Ville et université : aperçu sur l'histoire de l'école de Fès »,in Revue Historique de droit français et étranger, 1949.
- Bodman, H. L. – « Political Factions in Aleppo, 1760-1826 », in James Sprunt Studies in History and Political Science, XLV, Chapel Hill, 1963.
- Boube, J. – « Fouilles archéologiques à Sala », in Hespéris- Tamuda, VII(1966).
- Bousquet, G. H. – L'Islam maghrebin, Algiers, 1944.
- CBrignon, J. A. Amine, B. Boutaleb, G. Martinet, B. Rosenberger. – Histoire du Maroc, Casablanca, 1967.
- Brunot, L. – La Mer dans les traditions et les industries indigènes à Rabat et Salé, Paris, 1920.
- Textes arabes de Rabat, I, Paris, 1931. II, Glossaire, Paris, 1952.
- Brunshvig, R. – La Berbérie Orientales sous les Hafside, des origines à la fin du Xve siècle, 2 vol, Paris, 1940, 1947.
- Bulletin du Comité de l'Afrique. – « La population du Maroc », Paris, 1913.
- Busson, J.P.– « Frédéric le Play et l'étude du niveau de vie d'une famille d'artisans Marocains il y a un siècle », in Bulletin Economique et Social du Maroc, XVII (1953).
- Caillé, J. – Charles Jagerschmidt, Chargé d'affaires de France au Maroc(1820 – 94) Paris, n.d.
- La ville de Rabat jusqu'au protectorat français, 2 vol., Paris, 1949.
 - La petite histoire de Rabat, Casablanca, i.d.
 - « Ambassades et mission marocaines en France », in Hespéris, XLII (1960).
 - and J. Hainut. – « La qasba des gnoaoua », in Hespéris, XLII(1955)

- Carcopino, J. – Le Maroc antique, Paris, 1944.
- Caro-Baroja, J. – « The City and the Country : Reflections on Some Ancient Commonplaces », in Mediterranean Countrymen, ed. By J. A. Pitt-Rives, Paris, 1963 .
- Castellanos, M. – Historia de Marruecos, 3rd ed. Tangier, 1898.
- Castries H. de. – « Le Maroc d'autrefois. Les corsaires de Salé », in Revue des Deux Mondes(1903).Ms. copy A.G.R., No. A 4 3378.
- « Les trois républiques du Bou Regreg : Salé – la Kasba-Rabat », in Sources inédites de l'histoire du Maroc de 1530 à 1845, éd. by H. de Castries.
 - « Les moriscos à Salé et Sidi-Ayachi. Introduction critique », in Sources inédites, 1 Série, France, 1911, 187-98.
- Chenier, A. – Recherches historiques sur les maures et l'histoire de l'empire de Maroc, 3 Vol, Paris 1948.
- Coindreau, R. - Les corsaires de Salé, Paris 1948
- Colin, G – Chrestomathie marocaine, Paris, 1939
- « Mellah. » , in The Encyclopedie of Islam .
- Cotte, N. - Le Maroc contemporain, Paris 1860.
- Cousté, J – Les grandes familles indigènes de Salé, Rabat 1931.
- Dans le RPFPP. - Histoire de Barbarie et de ses corsaires, 2nd éd, Paris, 1649.
- Dapper, D O, - Description de l'Afrique, Amestrdame, 1686.
- Delphy, A. - « Notes sur quelques vestiges de céramique recueillis à Salé », in Hespéris, XVII 1955.
- Demeersman .A. - « Catégories sociales en Tunisie au XIX siècle d'après la chronique de A. Ibn abi d-diyaf », in Bulletin de I B L A . N° 117, 1967.
- Dunton . J , - A True Journal of the Sally Fleet wit the Proceedings of the Voyage .London, 1637.
- Desprez . - « Le bombardement de Salé », in Revue de l'Orient , de l'Algerie et des Colonies, XIII 1853.
- Dye , F .A .H . - « Les ports du Maroc ,leur commerce avec la France » , in Bulletin de la société de Géographie Commerciale de Paris , 1908.
- Emerit , M. - « A propos de la caravane de Salé », in les Cahiers de Tunisie , N° 11.1955.
- Encyclopédie d'Outre-Mer, II « Maroc . les Villes »
- Fagnan, E. – Extraits inédits relatifs au Maghreb, Alger 1924.
- Fourmet, P. et G. Levé, eds, - Les traités du Maroc, I, Paris, 1904.

- Gallaher , C . – The United States and North Africa : Morocco , Algeria , and Tunisia , Cambridge , Mass , 1963.
- « A Notes on The Maghreb » , in American Universities Field Staff . North African Series , XIII, N° 6 , 1967.
- Gautier , E . – Les siècles obscurs du Maghreb , Paris 1927.
- Geertz , C . – « Rituel And Social Change : A Javanese Example » , in American Antropologist , LIX 1957.
- Goldziher , I . – Muslim Studies , 2d , and trans , by . S.M.Stern , London 1967.
- Goulven , J . – « Notes sur les origines anciennes des israélites du Maroc » , in Hespéris , I 1921.
- Les Mellahs de Rabat – Salé , Paris , 1927.
- Guay , L . – « Forme Féminine berbère à Salé » , in Archives Berbères , III 1918.
- Guides Bleus . – Maroc , Paris , 1966.
- Guillen , P . – « Les sources européennes sur le Maroc . Fin XIX Debut XX siècle » , in Hespéris – Tamuda , I , 1966.
- Halstead , J . – Rebirth of a Nation : The Origins and Rise of Moroccan Nationalism , 1912-1944 , Cambridge , Mass.
- Hardy , A . – « Les Babouchiers de Salé » , in Bulletin Economique et social du Maroc , V 1938.
- Hecht , J.J . – « Social History » , in Encyclopedia of the Social Sciences 2nd éd . London 1968.
- Hirschberg . H.Z. – A History of the Jews in North Africa. From Antiquity to our Time (in Hebrew) , 2 Vol , Jerusalem 1965.
- Hoffher , R. and R.Morris . – Revenus et niveaux de vie indigènes au Maroc , Sirey 1934.
- Houri , A . - Arabic Thought in the Liberal Age , 1798-1939 , London 1962.
- Jackson , J.G. – Au Account of Timbuctoo und Hausa Territories in the Interior of Africa by El Haje Abd Salam Shabeeny , with Notes Critical and Explanatory. To Which is Added Letters Descriptive of Travels Through West and South Barbary and Acros The Mountains of Atlas , London 1820.
- Jeannot , G . – Etude Sociale , politique et économique sur le Maroc , Dijon , 1904.

- Julien ,C .A – l'Afrique du Nord en marche : Nationalismes musulmans et souveraineté Française , Paris 1952.
- Histoire de l'Afrique du Nord, 2 vols, 2 nd éd , 1961
- Jean-Léon l'Africain . – Description de l'Afrique, trans by A . Epaulard , Paris 1956.
- Keatinge ,M . – Travels throug France and Spain to Morocco, London , 1817.
- Lahbabi , M . – Ke gouvernement marocain à l'aube du XX siècle, Rabat 1985.
- Landau , R . – Moroccan Drama , 1900-1955, San Francisco, 1956.
- Lapidus , I . – Medieval Muslim Cities , Cambridge , Mass , 1967.
- La Pirmaidie , E, de . – « Villes maritimes du Maroc », in Revue Africaine 1873.
- Laroui , A . – l'Idéologie arabe contemporaine , Paris , 1967.
- Le coeur , A . – « Métiers et classes sociales d"Azemmour » , in Bulletin Economique et Social du Maroc, IV 1937.
- Le rite et l'outil , Paris , 1939.
- « Métiers et classes Sociales d"Azemmour » , in Bulletin Economique et Social du Maroc , IV 1937.
- Le Coz, J . – Le Charb Fellah et colons . Etude de géographie régionale Rabat 1934.
- Légey , Doctoresse .- Essai de Folklore , Paris 1926.
- Lemprière , W . – A tour From Gibraltar to Tangier , Sallee , Mogador , Santa crus, Tarudant , and thence over Mount Atlas to Morocco , London 1791.
- Lesne ,M . – Evolution d'un groupement berbère : Les Zemmours , Rabat 1959.
- Le Tourneau , R . – Evolution politique de l'Afrique du Nord Musulmane 1920-1961,Paris 1962.
- Fés avant le protectorat , Casablanca , 1947.
- Les villes de l'Afrique du Nord , Alger 1958.

من منشورات أمل

جامع القرويين والفكر السلفي
1914-1873

* محمد الفلاح العلوي

بيان يناير 1944 بين مطلبية
الاستقلال والديمقراطية

* مجموعة من الأساتذة
الباحثين

الحركة النقابية بالمغرب
ج 2 مغربة الحركة
ترجمة نور الدين سعودي

* البير عياش

الرحلة الزاهرة
في أخبار درعة العامرة
تحقيق احمد البوزيدي

* المهدي الناصري

